شعراء الحب ٤

ابن زيدون
عاشق الأندلس

وائل البدري



موفق عبد الجبار

ابن زيدون

عاشق الاندلس

موفق عبدالجبار محمد

مطبعة بغداد ـ شارع المتنبي ـ جديد حسن باشا ـ هاتف ٤١٦٣٦٦٢

الناشـــر
دار الآداب والعلوم
بغداد ـ شارع المتنبي
ص.ب ١٤٠٠٥

تقـــديم

ابن زيدون واحد من شعراء العربية الذين أغنوا المورد العربي في مجال الادب بتجربة انسانية رائعة ظلت الاجيـال متواترة على نقـل مضامينها الانسانية وهي تنظر اليها بألمح عيون الاعجاب والاكبار ٠

وابن زيدون كعلم من أعلام شعراء العربية كان مـــدار الحديث في هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القاريء وقـد اتضحت فيه الخطوط العامة والخاصة المتعلقة بحيـاة ابـن زيدون كانسان وكشاعر عاشق خلص مع نفسه مطمئناً الى أن الحب رسالة انسانية وغاية مطهرة يتوجب على الانسان الالتزام بمفاهيمها وتقصي أبعادها لتنطلق بـه في عوالـم رحيبـة من العاطفة الخلاقة والحلم الجميل ٠٠

عبدالمحسن حسين الساعدي

الاهـــداء

أخي عبدالاله عبدالواحد

لعله اليأس ...

ولعلها الحـيرة ...

ولربما كان بعد الاماني هو الذي الجأني اخيرا لأن أهدي اليك هذا العمل المتواضع ، وأنت أغلى من أن يكون كتابي هذا هو ردّ بعض معروفك لي واحسانك ، فلك يا أعز الاصدقاء همستي هذه آملا أن يكون البرء قد نلت مرماه ... راجياً أن يقع جهدي هذا من نفسك موقعاً طيباً .

موفق عبدالجبار

١٩٨٤/٢/٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي زين الانسان بعقله ، وجعله خليفة في أرضه ، وأعطاه من فضله ما به يستوضح دربه ، نشكره كل الشكر ، ونسأله الهداية والرضى ، ونلتمس منه التوفيق والسداد انه على كل شيء قدير .

المقـــدمة

فانها ساعة من ساعات المزاح وانقلبت الى صورة من صور الجد ، تلك الساعة التي كان فيها أحد الاصدقاء الافاضل يحدثني عن السلسلة التي بوشر بالعمل بها تحت عنوان « سلسلة شعراء الحب » والتي تحاول القاء الضوء على شعراء كبار ممن كان الحب قد شغل في نفوسهم حيزا كبيرا وان شئت فقل كل الحيز ، والواقع ان القائمين بهذه المهمة لمشكورون على سعيهم فيما شرعوا به لما سيحققونه من نفع يعود على القارىء الذي يريد معرفة الخطوط العريضة لحياة اولئك الشعراء دون أن يتحمل مشقة البحث في بطون المكاتب عن أي مرجع عنهم ودون جدوى اذ لا شيء جديد بصدد هذه الموضوعات قد صدر منذ فترة طويلة .

وكانت مزحة تفوهت بها أن اساهم في تلك السلسلة واذا بالرجل يحثني بشدة لتنفيذها والشروع فيها ، وكانت الفكرة تدور في راسي وتدفعني للكتابة ، فكان المرسى عند

ابن زيدون لاسباب عدة : منها افتقار المكتبات لأي مؤلف عن هذا الرجل باستثناء القليل مما كتب قبل عقود من السنين والذي ضاع تحت أكداس الكتب او فوق الرفوف العالية ، ومنها ايضاً كثرة الاحداث والمغامرات في حياة شاعرنا هذا مما يجعلها تضم الكثير من التشويق لمعرفتها والاطلاع عليها ، كذلك فأن ابن زيدون يمثل الادب العربي في الاندلس بأشرق صوره ولا يخفى ما للاندلس وعربها من فضل على اوربا وثقافتها ، اضافةً لذلك فأن أدب ابن زيدون له نكهة خاصة وطعم لا يشبه طعم الادب الذي تركه لنا أجدادنا الشعراء ممن عاشوا في الصحراء .

وقد سعيت في كتابي هذا لالقاء الضوء على جميع جوانب حياة هذا الشاعر باسلوب سلس وبسيط وبشكل كنت اريد فيه تجنيب القاريء من صيغة السرد الجاف الممل عاملا على الاختصار مع حفظ الحقائق ، والسهولة في السرد مع الاحتفاظ بجمال الكلمة .

وقد جعلت كتابي هذا فصولا تحدثت في أولها عن الوضع السياسي الذي ساد الاندلس آنذاك لما للشاعر من دور مهم فيه ، ثم عرجت في فصل آخر على حياة الشاعر ونشأته ، وأعقبتها بفصل عن التي شغلت قلبه « ولاّده بنت المستكفي » ، ثم كان لنا وقفة في أدب هذا الرجل ، وكانت

خاتمة المطاف بما اخترناه من شعره الذي يمثل حياته وعصره خير تمثيل ٠

ولست ادعي عصمة وانا الرجل الفقير لله ، ولا كمالا والكمال لرب العرش ، ولكنني اُمنّي نفسي أن يكون الله قد جنبني الخطأ والزلل ، ورغم ذلك فلا مفر من ان نخطيء ففي ذلك سر النجاح ٠٠٠ واسباب الصواب ٠٠٠ ، فعذرا عزيزي القاريء وصفحاً عما وقعنا فيه من هفوات فما كل ما يتمناه المرء يدركه ٠٠٠!

ويجدر بي وأنا في هذا المقام أن اقدم خالص شكري ، وعظيم امتناني ، وجزيل تقديري واحترامي للرجل الذي مدّ يده لي عوناً ، ومنحني رأيه حساماً اقتص به من شكي وترددي ، الاخ الفاضل **عبدالمحسن حسين الساعدي** أبقاه الله أخاً باراً وسدد خطاه لما فيه الخير والصلاح ٠

واسأل الله التوفيق ، عليه أتكل ، واليه انيب انه نعم المولى ونعم النصير ٠

موفق عبدالجبار محمد

١٩٨٤/٢/١

الفصل الاول

الوضـــع السياسي في الاندلس

عصر ملوك الطوائف :

لا يمكن لنا ونحن نحاول الولوج في دهاليز التاريخ وازاحة غبار السنين عن حياة شاعرنا ابن زيدون دون التعرض للوضع السياسي الذي ساد الاندلس آنذاك ، فابن زيدون لم يكن شاعرا فحسب وانما رجل سياسة ساهم وبثقل كبير في رسم وتحديد الخطوط العريضة لسياسة الاندلس ٠

كان محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي بالله الصفحة الاخيرة في حياة الدولة الامـوية التي حكمت الاندلس ردحاً طويلا من الزمن ، كان رجلا عربيدا مدمنا على الخمرة ليس له من همّ الاّ شهواته ونزواته ، وقد ذكره ابن بسام في مؤلفه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » فقال عنه (ان الله تعالى أرسله على أهل قرطبة محنة وبلية اذ كان مُذ عرف ، غفلا ، عطلا ، منقطعا الى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا من كل خلة تدل عـلى الفضيلة ، معـروفا بالتخلف والركاكة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الخلوة) ، ولم يعرف ـ لسقوط همته ، وضعف رأيه ـ كيف يدير دفة الحكم بحنكة ودهاء ويبسط سيطرته على البلاد وهي المبتلاة بشتى انواع الصراعات التي هزت الحكم هزا عنيفا ، الصراعات القبلية والجنسية بين عرب وبربر وصقالبه ، والصراعات المذهبيـة السياسية بين أمويين وعباسيين وعلويين ، وحتى الصراعات الدينية ، كل تلك الاسباب كانت الداء الذي أضعف الدولة

وهيأ لملوك الافرنج ما جعلهم يتحينون الفرص للانقضاض عليها واقتطاع بعضاً من اجزائها . على اثر ذلك انهار الصرح الاموي وسقطت خلافة المستكفي الذي لم ينعم بها اكثر من تسعة عشر شهرا حيث فرّ هارباً متخفياً بين امرأتين الى مدينة اقليج فكانت نهايته فيها اذ دس له احد ضباطه السم فمات متأثرا بذلك .

وبانهيار الصرح الاموي تصدعت الاندلس وتحولت الى امارات صغيرة متناحرة فيما بينها تتربص هذي بتلك حتى ان حكام بعض من تلك الامارات كان يستعين بالاعداء المتربصين لالتهامهم على الامارات المجاورة ، ولسنا بصدد تاريخ كل تلك الامارات وما احاط بها من ملابسات ولكن الذي يهمنا في هذا المقام امارتان اثنتان تكونتا على انقاض الدولة الاموية هما قرطبة ، واشبيليه ، حيث كان للشاعر ابن زيدون قسط من عيشه في الاولى وقسط في الثانية وهو مدار بحثنا ..

قرطبة :

بسقوط الخلافة الاموية الاخيرة ، اجمع اهل قرطبة على الاستقلال واعلان حكم جديد نصبوا عليه ابا الحزم بن جهور اميراً ، وكان رجلا تقياً متمسكاً بأهداب الدين حازماً بعيد الرأي ، عارفاً بالسياسة واركانها ، استطاع بدهائه وحنكته ان يسوس الرعية بجداره ويكسب رضاها ، وكان يعلن انه امين مؤقت على الحكم حتى يجمع الناس على امام عادل

بهم[1] ، قام باصلاحات كثيرة ظهر اثرها جلياً واضحاً في اتساع دائرة المعارف وتطور شتى صنوف العلوم ، وتحامى الصدام مع ملوك الامارات المجاورة وتصبّر على تحرشاتهم ، وكم حاول بنو عباد في اشبيلية التعرض لملكه ولكنه كان يتحاشاهم ، ولما نُودي بهشام الثاني الخليفة المزعوم وتأهب الشعب لتأييده بالقوة بادر بالاعتراف به وتأييده نزولا عند رغبة الرعية ، ولكنه راح يظهر للناس زيف حقيقته ووهم امره ، وشيئاً فشيئاً تبددت الفكرة من اذهان الناس وتلاشت من نفوسهم حتى تخلوا عنها وبذلك استطاع ابو الحزم بدهائه وسياسته أن يجنب امارته الدمار والخراب .

وقد ولى الوزارة للشاعر ابن زيدون وقربه اليه واناط به امورا كثيرة واعتمد عليه فيها مستفيدا من رايه ودهائه ، وقد أحسن ابن زيدون التصرف فيما اوكل اليه ، ولكن اعداءه وحساده شرعوا يكيدون له المكائد ويتأهبون لطعنه من الخلف ، فاستطاعوا بعد ان ملأوا نفس الامير ريبة منه النيل من مكانته وسمعته فألقى به في السجن دون اية لفتة للتحري عن صحة تلك الدسائس ، وقد حاول الشاعر كثيرا وهو في سجنه استعطاف الامير واستمالة عواطفه اليه ، ونظم في ذلك عدة قصائد ولكن الامير لم يأبه له ولم يمنحه اذناً صاغية ، واخيرا استطاع الشاعر - ويقال - بمعونة ولي العهد أن يفرّ من

---

(١) علي عبدالعظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله .

سجنه الى اشبيلية ، وفيها قضى فترة قصيرة كان يعاني خلالها الكثير الكثير من لواعج نفسه وحنينه لقرطبة واهله فيها ، والكثير الكثير من حبه وشوقه لمحبوبته ولاده فكانت له قصائد عصماء تفيض اسىً وحسرة ولعل من ابرز قصائده نونيته المشهورة :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

واخيرا لم يقو على مقاومة عواطفه فعاد متخفياً الى قرطبة ومكث سراً في ضاحية الزهراء ومنها راح يراسل اصدقائه ومنهم ولي العهد ويراسل محبوبته ايضا :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والافق طلق ووجه الروض قد راقا

وكان النجاح حليفه فرضي عنه الامير ابو الحزم ، ولم تمض الا شهور قليلة حتى وافت المنية الاخير وتولى بعده الخلافة أبو الوليد بن جهور صديق الشاعر الحميم .

وكان الامير ابو الوليد باراً بحرمة الصداقة وما توجبه عليه فأعاد ابن زيدون الى مناصبه السابقة وأناط به مهمة السفارة بينه وبين ملوك الطوائف لما كان يتمتع به من كياسة ولباقة ، وكانت له منزلة عالية لدى الامراء فكنّوا له الحب والاحترام ، ولكن خصومه وأعداءه عادوا من جديد يضعون امامه العقبات ويدخلون في روع الامير عدم صلاحيته للوزارة

وخطورة بقاءه فيها ، وقد احس شاعرنا بذلك وايقن ان قرطبة لم تعد المرتع الذي تزهر فيه احلامه فقرر تركها ، وكان ماضياً في صنع ترجمة القرار فترك قرطبة قاصداً اشبيلية فكانت رحلته الاخيرة في عهد بني جهور .

اشـــبيلية :

تولى ابو القاسم بن عباد الحكم في اشبيلية عام ٤١٤هـ ،وتمكن بحزمه وذكائه من ان يقوي دعائم حكمه ويفرض سيطرته بجدارة على البلاد ، وقد استطاع ان ينال من اعدائه ويضعفهم باشعال نار العداوة والبغضاء فيما بينهم ، كما نجحت خديعته حينما اختار شخصاً به شبه من الخليفة الاموي هشام الثاني ودعى الامارات المجاورة لتأييده ومساندته ، اذ بادر قسم منها لتأييده ورفض القسم الآخر ، وبذلك استطاع أن يظم لملكه اقاليم جديدة ويوسع رقعة امارته .

وقد توفى سنة ٤٣٣ هـ فخلفه ابنه المعتضد بن عباد وكان شاعرا مجيدا ورجل سياسة ودهاء ، قويا ماضي الارادة ، ميالا للحروب وسفك الدماء ، واستطاع أن يوسع رقعة امارته اكثر بذكاء وجدارة ، وكان لقرضه الشعر اهمية كبيرة في انعاش الحركة الادبية إذ راح الشعراء يتقاطرون على بلاطه ويتطارحون القصائد الشعرية فيه ، وكان ابن زيدون في صدارة هؤلاء الشعراء ، فهو علاوة على ما كان يتمتع به عند الامير من حظوة ومودة ، الصديق القديم الذي ولاه وزارته

واستعان برأيه ودرايته في توطيد حكمه ، وهو الشاعر الفذ الذي لا يقارع ..

وقد ظل يحكم الامارة حتى عـام ٤٦١ هـ حيث التحق بالرفيق الاعلى فخلفه ابنه المعتمد بن عباد ، الشاعر الذي كان مع ابن زيدون مدرسة شعرية لا غنى لمتتبع تاريخ الشعر العربي وتطوره في الاندلس من مراجعته ودراسته ، وقد أقر لصديقه ابن زيدون مناصبه الوزارية السابقة وقربه منه كثيرا مستفيدا من خبرته وحسن تدبيره ، وقد استطاع بتخطيط الشاعر أن يفتح قرطبة واضافتها لملكه بعد أن أساء ولاتها التصرف في الحكم ، وبعودته لموطنه الاول استقرت نفسه وقرت عينه بعد طول فرقة ولكن الدسائس عادت من جديد تعترض سبيله يحكيها اعداؤه فاستغلوا فتنة ثارت في اشبيلية بعث المعتمد ابنه الحاجب سراج الدولة في حملة لقمعها ، استغلوا تلك الفتنة وأشاروا على المعتمد ارسال ابن زيدون فيها لما يتمتع به من سمعة طيبة لدى أهل اشبيلية ، واقتنع الامير بمشورتهم وقد كانوا يريدون ابعاده لاتقان الدسيسة له ، ولكن الشاعر اعتذر لمرضه وتقدم سنه ، ولما لم يستجب الامير لعذره قبل الامر مكرهاً ، وما كادت المهمة أن تنتهي حتى فعلت مشاق السفر والمرض وصعوبة المهمة فعلها ففاضت روح الشاعر الى بارئها عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، وكان لموته الاثر البالغ في نفوس أهل قرطبة ، ويبدو ان موته خلف

في نفس المعتمد الاسى والندم على ما فعله فعيّن ابن الشاعر في منصب الوزارة جبراً للخطأ الذي أقدم عليه ثم ولاه على اشبيلية ، وظل في خدمة المعتمد حتى قتل عام ٤٨٤هـ ٠

ولم تدم دولة بني عباد بعد ذلك طويلا اذ راح امراء الافرنج يهددون حدود امارتهم ويتهيأون لالتهام ملكهم ، فاستعان المعتمد بيوسف بن تاشفين في المغرب الذي أعانه على رد كيد الاعداء ولكنه التف عليه وسلبه ملكه وأودعه الاسر حتى مات بعد ان عانى الامرين من عذاب وتنكيل ٠

الفصل الثاني

ابن زيدون : الشاعر السياسي العاشق

نسبه ونشأته :

هو أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي وبنو مخزوم من أعلام بطون قريش وأشرافهم وحسْبُهم ان خالد بن الوليد المخزومي هو أحد أعلامهم .

ولد الشاعر أواخر عام ٣٩٤ هـ في الرصافة وهي ضاحية متصلة بقرطبة انشأها الخليفة الاموي عبدالرحمن الداخل وجعلها مقره ، وتعد من أفتن ضواحي الاندلس لما تمتاز به من طبيعة ساحرة ومناخ طيب وهواء معتدل .

والواقع ان التاريخ كان بخيلا علينا كل البخل في اعلامنا بتفاصيل أسباب وتاريخ وحقيقة نزوح أجداد الشاعر الى الاندلس ، فلم تحوِ المراجع القديمة منها والمعاصرة ما يجعلنا على بينة من ذلك ، وكل ما أورده التاريخ لنا شروح بسيطة وأخبار طفيفة عن امه وأبيه وجده لامه .

أما امه فانها ما زالت للباحث الدراسي سراً مجهولا على حد ما وصل الينا في المصادر ، لا نعرف عنها الا ان جدها هو محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسي وهو من العلماء الاجلاء ومن أفاضل أهل الاندلس ، كانت له منزلة مرموقة بين أشراف عصره جعلته يتبوأ مناصب مهمة في الدولة ، فتولى النظر في الاوقاف وكان في ذلك عادلا أميناً في حفظ الاموال العامة وله مؤلفات كثيرة زخرت بعلمه وأدبه وترجمت بدقة مكانته الرفيعة بين علماء عصره ، ولعل من ابرز مؤلفاته التي كان

التاريخ باراً بها فحفظها لنا ما وضعه في جمع كلام ابي زكريا يحيى بن معين في ثلاثين جزءا ، وقد ظل في موقعه ناظرا على الاوقاف حتى توفي سنة ٣٩١هـ .

اما ابوها فهو ابو بكر محمد بن محمد بن ابراهيم وكان ايضا عالماً جليلا مهيباً احتل في قرطبة مكانة سامية بين شخصيات واعلام عصره ، كان حازماً سديد الرأي ولي لرجاحة عقله القضاء بمدينة « سالم » ثم اعتلى منصب احكام الشرطة والسوق بقرطبة وهو منصب له موقعه في الحكم يعادل منصب الوزير ، ولعله في احتلاله هذه المراكز ما يؤكد لنا انه كان رجلا ثرياً عدلا لان القضاء لم يكن يناط امره لأي فرد كان ، وقد أشرف على تربية الشاعر وتأديبه بعد وفاة أبيه وأحسن في ذلك اذ كوّن النواة الاولى لشخصيته وحسنه وأنشأه نشأة هيأت وجدانه للارتقاء عالياً فوق مراتب المعرفة والادب . ودام على رعايته له وترشيده حتى جاوز ابن زيدون سن الاربعين حيث فارقه جده ملبياً نداء ربه عام ٤٣٢هـ أثناء محنة الشاعر .

هذا عن امه ، الركن الاول من الاركان التربوية المهمة في حياة الشاعر ، وكما يلاحظ فانها تنحدر من اسرة نبيلة عريقة لها صيتها ومنزلتها بين اسر اهل الاندلس .

اما ما حدثنا به التاريخ عن أبيه فقد عرفنا منه انه كان لا يقل اصالة وشرفاً عما احتوته اصوله في امه ، اذ كان رجلا

عالماً ، فقيهاً ، عارفاً باصول الدين متمسكا بأهدابه ، فصيح اللسان ملماً الماماً واسعاً بالعربية واصول البيان والبديع وما الى ذلك من علوم اللغة ٠

وقد توفي سنة ٤٠٥هـ اثناء تفقده لضيعةٍ له في منطقة « البيرة » فنقلت جثته الى قرطبة ودفن فيها ، واذ ذاك كان ابن زيدون في حوالي الحادية عشرة من العمر ٠ وقد افتقده أهل قرطبة كثيرا بعد موته اذ ترك وراءه فراغاً مهماً كان يشغله ، فرثاه صديقه أبو بكر بن عباد بن ماء السماء بأبيات أوضح فيها قدر الفقيد ومنزلته ٠

وبوفاة والد الشاعر بات لزاماً على جده لأمه أن يتولى أمره ، وبما عُرف عنه من جد وصلابة نستطيع أن نعرف مدى الصرامة التي اتبعها في تأديبه وانشائه فهو كما ترجح القرائن وحيد أبويه وذلك ما يجعل له قدرا كبيرا من الحظوة والمحبة لدى جده ، ومن البديهي أن يكون هذا الاخير حريصاً على جعل خلفه رجلا يحفظ مكانة الاصل الذي انحدر منه ويشغل مركزاً يليق بأبناء الاشراف والافاضل ٠

كما ان اباه كان على صلات متينة مع كثير من الاصدقاء من ذوي المكانة العالية والسمعة الرفيعة ولا يُستبعد ابداً ان يكون مثل هؤلاء الاصدقاء بارّين بحرمة صديقهم بابنه ولعلهم ساهموا جميعا في تاديب الشاعر خير تأديب وارضاعه من صنوف الادب والمعرفة الكثير الكثير ٠

كل تلك العوامل من بيئة صالحة عالية الجاه ، وثراء كبير ، وطبيعة جميلة ، واتجاه عام نحو المعرفة والعلم ساهمت وبقدر كبير في خلق شخصية ابن زيدون فلا عجب أن يكون علماً مهماً من أعلام الاندلس.

وعلى الرغم من أن العلوم التي درسها الشاعر لم يحددها التاريخ بدقة ، ولم يشر الى المدارس التي كون شخصيته فيها الا انّنا نعرف ان العلوم التي كانت تُدرّس آنذاك هي علوم اللغة والمنطق والفقه والفلسفة ، ودراسة القرآن الكريم ، والتاريخ والجغرافية والاجتماع ، وكل تلك العلوم تبدو واضحة جلية في شعر الشاعر وبمستطاع القارىء المتتبع أن يلحظ ذلك بوضوح الى الحد الذي يستطيع أن يقرر ان ابن زيدون كان دارساً كل تلك العلوم ملماً بمفرداتها ، جامعاً لاسرارها ولذلك لا نجده يُبالغ في قوله اذ ينشد :

ونجدني علمٌ توالت فنونه
كما يتوالى في النظام سِخابُ

علاقاته :

أما عن علاقات الشاعر وصداقاته فأننا نعرف ان مركزه الاجتماعي كونته شاعرية فذة ،وعلم غزير ، وثراء واسع ، وأصل كريم ، وكل ذلك جدير بأن يجعل له صداقات كثيرة كانت متينة للغاية ، ولعل من أبرز تلك الصداقات المبكرة علاقته الحميمة مع أبي الوليد بن جهور ، وابي بكر بن ذكوان ، أما الاول فقد كان ولي عهد الامارة ، وهو رجل تقيّ يدرأ الحدود بالشبهات الى الحد الذي كان كثيراً ما لا يقيمها (١)

بحجة عدم وجود امام مجمع عليه[1] ، أما الثاني فقد كان من العلماء الاجلاء ، عادلا ، حازماً كل الحزم ، ولي الوزارة ثم ولي القضاء ، ولشدة حزمه رفض الموافقة على التصرف في مال الاوقاف لانفاقه في المصالح واعتزل من منصبه على أثر ذلك ، وقد توفي دون سن الاربعين فكان ذلك حدثاً جللا حزن له الناس جميعاً حتى ان ابن جهور شيّع جنازته بنفسه ، وقد رثاه كثير من الشعراء بقصائد تفيض أسىً وشجناً ذاكرين فضله ومرتبته ، وكان شاعرنا ابن زيدون واحداً من اولئك الذين رثوه حيث نظم قصيدة فيه حمّلها كل شجنه لفقده ، منهـا :

إعجب لحـال السروّ كيف تُحال
ولـدولة العليـاء كيف تُـدال

مـا أمتـع الآمـال لولا أنهـا
تعتـاق دون بلوغهـا الآجـال

قمرٌ هوى في الترب يُحثى فوقه
لله ما حـاز الثـرى المنهـال

الآن بيّـن للعقـول زوالـه
ان الجبـال قصـارهن زوال

ما اقبح الـدنيا خـلاف مـودّع
غنيت بـه في حسنها تختـال

(١) المصدر السابق .

وقد ربطت هؤلاء الثلاثة رابطة صداقة متينة اوحت لهم بالظرف والمرح فكانت لهم ساعات لهو وتحرر يقضونها في معاقرة الشراب وخلع ثوب الوقار وترك قيود الالتزام والتهيب ، حتى اذا انقضت تلك السويعات ونالوا من اللذة وطرهم عاد كل واحد منهم الى جده ووقاره ولبسوا ثوب الجلال والحزم ·

دوره السياسي

١ - في عهد أبي الحزم بن جهور :

في الواقع ان وفاضنا خال تماما من اي بيان يوضح لنا الدور الحقيقي الذي اضطلع به الشاعر في هدم الصرح الاموي وبناء الدولة الجهورية في قرطبة ، كذلك لا نعرف كيف استطاع أن يكون علماً مهماً يمثل في خيال ابي الحزم بن جهور فيوليه منصب الوزارة في الوقت الذي كانت قرطبة تزخر برجال العلم والادب والمعرفة ، لكنا نعرف انه كان في طليعة الشباب المثقف الواسع الاطلاع ، وليس من شك في ان مثل ذلك الشباب كان له الاثر البالغ في اثارة الرأي العام وتأجيج ناره وتأليب العامة على الخلافة الاموية التي عاشت اسوأ أيامها في عصر المستكفي ، ومن الطبيعي أن يكون ابن زيدون - وهو في الثامنة والعشرين من العمر آنذاك أي في أوج اندفاعه وطموحه - قد ساهم في ذلك بما يمتلكه من مواهب طافحة لا بالسيف .

اما كيفية وصوله الى المنصب الوزاري في دولة بني جهور فانا نرجح ان علاقته الوطيدة بمن كانوا يمثلون اركان الحكم كأبي الوليد بن جهور ولي العهد وابن ذكوان وسواهم جعلته واسع الصيت معروفاً من قبل العائلة المالكة ، كما ان ثقافته العالية اوضحت لتلك العائلة وعلى راسها أبو الحزم مدى صواب فكرة اسناد الوزارة اليه .

وفعلا كان ذلك اختيار ابي الحـزم فولاه ذلك المنصب مستفيدا من مشورته ورأيه في ادارة الحكم ، وقد كان للشاعر دوره في ترسيخ دعائمه واخصاب التربة الادبية فكان لابي الحزم بلاط كثر ما تطارح الشعراء فيه القصائد الفتانة ، ولا ريب ان ابن زيدون كان في صدارة تلك المجالس لما يمتلكه من مواهب أثمرت في تقوية علاقته بالامير مما جعل الاخير يجله ايّما اجلال ، وهي ذات الموهبة التي انعشت العاطفة بينه وبين محبوبته ولاده وأوقعته في حبائل عشق تلك الحسناء ، وهي ذاتها التي عادت عليه بالنكبات لما أثارته في صدور حساده من غيرة وحسد ، اذ كان لعلو نجمه في الدولة ، ونيله الحظوة عند ولاده ما أثار هواجس منافسيه فحركهم لمواجهته وخلق العثرات أمامه ، وحياكة المكائد والدسائس التي ارادوا فيها تصديع تآلفه مع الامير وقطع خيوط حبه مع ولاده ، وتم لهم ما ارادوا اذ أفلحت خططهم بالازراء بالشاعر ورميه في غياهب السجن ، وما دمنا بصدد حكاية سجنه فلابد لنا من الاشارة اليها بشيء من التفصيل :

فقد أوهم أعداء الشاعر الامير بأن ابن زيدون ضلع متين في مؤامرة خبيثة للاطاحة بحكمه ، وانه من الاركان المهمة الداعية لهشام الثاني الخليفة المزعوم في اشبيلية ، كما زعموا ان الشاعر اطلق لسانه في هجاء الامير والنيل منه ، وفسروا توافد الشاعر على مجالس ولاده تفسيراً مريباً ادعوا فيه انه

يبيت أمرا ما ولربما كان للاتفاق مع اقاربها المخلوعين لطرد بني جهور واعادتهم للحكم خصوصا وهو ابن الرجل الذي كان من أشياع المستعين بالله الخليفة الاموي الذي اعتمد على البربر [١] .

كل ذلك احتل من نفس الامير مكاناً فسيحاً جعلته يهيء أمرا للنيل منه ولكنه كان يرى انه لا يمكن محاكمة الشاعر على تلك التهم التي رسموها له لصعوبة اثباتها ، فأشار لحاشيته بأن يتولوا امره وبالفعل قاموا بتوجيه تهمة باطلة له مفادها ان ابن زيدون قام بأغتصاب عقار [٢] ، وهي تهمة حسمت الامر كما كانوا يريدون لكنها لم تكن اختيارا موفقاً أبدا وهو الرجل الثري الذي كان يشغل منصب الوزير ، ولكن اصرارهم على أبعاده دفعهم للمضي في تنفيذها فعينوا لها قاضياً خاصاً (أي انه لا يشغل هذا المنصب اصلا) للنظر فيها هو عبدالله بن أحمد بن المكوي وهو رجل لا علم له بالقضاء ، عرف عنه الجهل وضحالة التفكير وحسبه انه عين للنظر في تهمة باطلة ، وقد وصفه ابن بشكوال بقوله (انـه لم يكن من القضـاء في ورْدٍ ولا صدر لقلة علمه ومعرفته وانما كان أثرةً اثر بها) ، كما قال عنه ابن سعيد (ولم يكن في نصاب القضاء ، وهو ممن آثر الخمول للدعه ، والفلاحة على الدراسة ، ولم يطلق عليه اسم

---

(١) وليم الخازن : ابن زيدون وأثر ولاده في حياته وادبه .
(٢) علي عبدالعظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله .

القضاء) ، وقد كان في توليه القضاء متصنعاً في جلاله ورفعته حتى انه كان يسخر بالكثير من أهل العلم والفضل . وفي هذا يتم ابن سعيد حديثه فيقول (اكتسب صرامة ، واعجاباً حتى استخف بكثير من وجوه الناس فجرت له بذلك خطوب من رجل قليل العلم ، نكد الخلق ، وقد الح الناس في صرفه حتى صرفه أبو الوليد بن جهور سنة ٤٣٥هـ) .

وكانت المحاكمة شكلا سافرا من أشكال التعسف والاضطهاد كان يراد بها ادانة الشاعر بأية صورة كانت ، فذهبت كل حجج الشاعر أدراج الرياح ولم يأبه بها القاضي مخالفاً بذلك كل الاجراءات القانونية .

ولو عرضنا للقاريء الهفوات التي سقط بها القاضي لعرف مقدار التجني الذي وقع عمدا على الشاعر البريء فقد اكتفى القاضي بشهادة شاهد واحد ويقال انه لم يكن عدلاً ، كما انه سلبه حق الدفاع عن نفسه ، ولم يلتفت لوثيقة كتابية قدمها الشاعر تبرئه من التهمة ، اضف لذلك ان الشاعر عرض الصلح على الخصوم وهو أمر يجيزه الشرع ولكن القاضي تهرب منه ، ولو سلمنا بصحة التهمة فان الشرع لا يُجيز الحبس في الحق اذا تمكن القاضي من استيفائه حسبما يقرر الفقهاء ، وقد كان بوسع القاضي ــ لو كان يريد ــ أن يستوفي من الشاعر ما بذمته وهو كما نعرف من الموسرين ، لكنه أمر بحبسه ولم يجعل لذلك اجلا محدودا في الوقت الذي قرر

الفقهاء ان الحبس يجب أن لا يتجاوز عاماً واحداً ، وفوق كل هذا فأن الشاعر طُرِح في سجنه بين اللصوص والاوغاد خلافاً لنظام السجون الذي كان متبعاً آنذاك ويقضي بالتمييز بين طبقات المسجونين .

وكانت هزة عنيفة أودتا بكبرياء الشاعر وعزته وحملته من الهموم ما جعل الكثيرين من أصدقائه يتأسفون لذلك اشد الاسف ، وقد كان لهذه الصدمة أثرها البالغ على وجدان ومشاعر ابن زيدون فكانت له روائع في سجنه لا مهرب لنا من ذكر بعضٍ منها ، فمن ذلك قصيدته التي يتوسل فيها للامير ابي الحزم :

ألم يأنِ ان يبكي الغمامُ على مثلي
ويطلب ثاري البرق مُنصلت النصلِ ؟
وهلاّ أقامت انجمُ الليل مأتماً
لتندب في الآفاق ما ضاع من نَثلي
ولو أنصفتني وهي اشكال همتي
لالقت بأيدي الذلّ لما رات ذلي

حتى يقول :

الا ان ظني – بين فعليك – واقفٌ
وقوف الهوى بين القطيعةِ والوصلِ
فان تُمنَ لي منك الاماني فشيمةٌ
لذاك الفعالُ القصد والخُلق الرّسلِ

وله في قصيدة اخرى ارسلها من سجنه الى صديقه ابي حفص بن برد الاصغر :

مـا عـلى ظني بـاس' يجرح الدهر وساس'
ربمـــا أشـــرف بالمـرء عـلى الآمـــال يـاس'
ولقـــد ينجيـك اغفـال" ويرديك احتـــراس'
ولـكم أجـدى قعـود" ولكـم اكدى التماس'
وكـذا الـدهر' اذا ما عــزَّ ناس" ذلَّ ناس'

ولم تقتصر توسلاته على القصائد الشعرية حسب بل كانت له رسالة طويلة بعث بها الى ابي الحزم حمَّلها كل همه وأودعها الكثير الكثير من ألمه ، وفصل فيها كيف ان أعـداءه أوقعوا به وهو البريء الذي ما كان في يـوم ما الا" الـرجل المخلص الـوفي ، وهـذا جـزء مـن تلك الرسـالة الموسـومة بـ (الرسالة الجدية) :

(واني لاتجلـد ، وا'ري الشامتين اني لـريب الـدهر لا اتضعضع فأقول : هل أنا الا" يد" أدماها سوارها ؟ وجبين عضَّ بــه الكيلـه ، ومشـرفي" الصـقه بالارض صاقلـه ، وسمهري عرضه على النار مثقفه ، وعبد" ذهب به سـيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك حـازماً
فليقس' احيـاناً عـلى مـن يرحـم'

هذا العتبُ محمودٌ عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تقشَّع ، ولن يريبني من سيدي ان ابطأ سحابه) .

ويمضي فيها حتى يقول :

(ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذي لم يأتِ من ورائه حلمُك ؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطوّلك ، والتحامل الذي لم يفِ به احتمالك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فاين العدل أو مسيئاً فأين الفضل ؟

الاّ يكن ذنب فعدلك واسعٌ

أو كان لي ذنبٌ ففضلك أوسَعُ)

والرسالة طويلة لا يتسع البحث لاكثر مما أوردناه .

أما عواطف الحب ومشاعر الوجد فانها لم تكن بأقلَّ وطأةٍ على نفسه من جرح عزته ، فولاده كانت تعيش في قلبه ولياليها الملاح كانت تمثل في مخيلته فلا عجب أن يبعث لها الشاعر يبثها شجونه ويعلمها بمدى ألمه وهو يصارع الشوق والذكريات في سجنه ، ومن ذلك قوله من قصيدة طويلة يناجيها فيها ويضمنها تفرعه للامير ايضا :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمرِ

الاّ ذكرتك ذكر العين بالاثرِ

ولا استطلتُ ذماء الليل من أسفٍ

الا على ليلةٍ سُرّت مع القِصَرِ

ناهيك من سَهَرٍ برحٍ تالّفـه
شوق" الى ما انقضى من ذلك السَمَرِ

فليت ذاك السواد الجونُ متصل"
لو استعار سواد القلب والبَصَرِ

ومنها أيضاً :

أمـا الضنى مجنتـه لحظة عَنَنٍ"
كأنهـا والردى جـاءا على قَـدَرِ

فهمتُ معنى الهوى من وحي طرفك لي
ان الحـوار لمفهـوم" من الحَـوَرِ

وكان نصيبُ كل تلك التوسلات ان ذهبت سُدى ولم تجدِ نفعاً ، فأن الدسيسة - ولا ريب - كانت محبوكة الى الحد الذي اوغل صدر الامير تماماً فجعلته يصمّ اذنيه عن كل نداءاته ، فظل الشاعر في سجنه لا يعرف لأي مدى أو أجل ، فمكث فيه حوالي خمسمائة يوم للفترة بين محرم سنة ٤٣٢ وشعبان سنة ٤٣٣هـ بدليل قوله :

مِئون من الايـام خمسٌ" قطعتهـا
اسيراً وان لم يبدُ شدٌ" ولا قمطُ

ولما أحس بخيبة كل جهوده عزم على الفرار من سجنه ونفذ ما عزم عليه ، ومن الراجح ان صديقه ابا الوليد بن جهور اعانه على تنفيذ خطته ، فهرب على وجلٍ بكل ما امتلك من

جهد فقطع المسافة ما بين قرطبة واشبيلية بيوم واحد مع ان المسافة بينهما ثلاثة أيام كما قرر ابن دحية وابن خاقان .

***

وفي اشبيلية كان ينعم بمكانة عالية عند أميرها المعتضد بن عباد ، فقربه واجلّه وأكرمه اكراماً حسناً ، وقد كان يريد بذلك جذب الشاعر الى بلاطه ، ولكن نفس ابن زيدون كانت تتوق الى قرطبة موطن أهله واحبائه ، وعواطفه تشده بقوة للعودة لها ، فكانت له روائع من الشعر تنبؤنا بمدى عمق جرحه ، ومن تلك القصائد نونيته المشهورة التي ظلت على مر الدهور ترنيمة الشعراء والادباء :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

ان الزمان الذي ما زال يضحكنا
انساً بقربهم قد عاد يبكينا

غيظَ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغصّ فقال الدهر آمينا

واخيرا غلب على امره فقاد اسير حنينه الى قرطبة سرا ومكث في ضاحية الزهراء مختبئاً ، ومنها راح يراسل حبيبته

ولاّده ، ومن ذلك قصيدته التي يقول فيها :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً
والافق طلق ومرأى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنه رقّ لي فاعتل اشفاقا

ويستمر فيها حتى يقول :

لا سكّن الله قلباً عنّ ذكركم
فلم يُطر بجناح الشوق خفاقا
لو كان وفى المنى في جمعنا بكم
لكان من أكرم الايام أخلاقا

ومن الزهراء أيضا راح يراسل صديقه واستاذه أبا مسلم بن أحمد ، فبعث له رسالة جاء فيها :

(يا سيدي الذي كنت أراه أعدّ عددي لأبدي ، واخصّ جفني من زمني ، ومن أبقاه الله في أصلح الاحوال وأفسح الآمال) .

ومنها أيضاً :

(وأوسّطه بمعاتبتك على ما كان من انفعالك عني ، وبراءتك أمد المحنة مني ، وانك لم تكن في وردٍ ولا صدر من مشاركتي فيها ولا كانت لك ناقة ولا جمل في مظاهرتك لي عليها ، مع القدرة بك على تهوين خطبها وتذليل صعبها ، وتليين شديدها وتقريب بعيدها) .

ويبدو واضحا ان الشاعر حاول في هذه الرسالة دفع التهمة عن نفسه بما أورده من حجج وأسباب ، ووصف محاكمته بأنها كانت نموذجا باطلا لم يراعَ فيها الصيغ الشرعية التي يؤكد عليها الشرع الإسلامي .

واستمر الشاعر في مساعيه عند ابي الوليد بن جهور ولي العهد يتوسل اليه الوسائل أن يقنع الامير أبا الحزم بالعفو عنه ، وأخيرا وبعد جهود مضنية أصدر أبو الحزم عفوه عنه .

ولم تمضِ الا شهور قليلة حتى كانت المنية تترصد الامير وتوقع فيه قضاء الله .

٢ ـ في عهد ابي الوليد بن جهور :

يبدو ان من حسن طالع ابن زيدون وقوع حدث وفاة أبي الحزم في تلك الفترة العصيبة ، فتلك الايام كانت أسوأ أيامه ، ولولا يد القدر التي حسمت الامر لكان للشاعر أمر" مختلف .

وأبو الوليد كان صديقا حميما للشاعر ، يكنّ له الود والحب ، وقد حاول تعويضه ما فاته في عهد أبيه ، وكما كان ابن زيدون يؤمل فان الامير الجديد بما كان يعرفه عن قدره أجلّه أيما اجلال ، وقربه منه وأكرمه اكراماً طابت له نفسه فعينه للنظر في أهل الذمة ، ولكن طموح الشاعر ما كان يقف عند حد هذا المنصب فراح يمدح الامير ويتقرب اليه أكثر ويوحي له في شعره بأنه أهل" لتسنم ما هو أرقى من هذا المنصب ، وبالفعل كانت الوزارة حصته جعله عليها بعد أن قنع بذلك .

ولما رأى الامير ان حب ولاده قد اخذ يفتك به فتكاً شديدا اضاف اليه منصب السفارة لدى ملوك الطوائف علّه في الابتعاد عن موطن معشوقته ما يسليه او ينسيه الحب الذي اخذ منه كل مأخذ ، ولربما كان السفر والتجوال نافعاً في تهدئة نفسه وشرح صدره .

ومع ما كان للمنصب الجديد من فوائد عادت على الشاعر

لعل من أهمها توطد علاقته مع ملوك الامارات الاخرى بعد أن لمسوا ظرفه وحذقه ، فأنه كان سبباً لهز علاقته مع ابي الوليد ، ولربما حدث هذا بسبب تصرف الشاعر الخالي من الحكمة واللياقة ، فحين كانت سفارته في (مالقه) ابطأ في اقامته عند أميرها ادريس بن يحيى بن حمّود ، ولعل تشابه نزعاتهما من ميل الى الشعر والشراب كان هو السبب الذي دعا ابن زيدون لاطالة مكوثه عنده ، وحينما طلبه أبو الوليد لم يلبِ نداءه ولم يعره اذناً صاغية ، فأغتنم منافسوه الفرصة لاثارة حفيظة الامير عليه فعزله من منصبه ، ولم يرجع الشاعر الا بعد أن كان الامير قد اتخذ قراره ، فجاء متضرعاً وهو يقول :

بنيتَ فلا تهدم ورشتَ فلا تبري
وأمرضت حسادي وحاشاك أن تُبري
هب العزلَ اضحى للولاية غايةً
فما غاية الموفى من الطُل أن يُكري
ففيم ارى ردّ السلام اشارةً
تسوغ بي ازراء من شاء أن يزري
فان عاقت الاقدار فالنفس حرّةٌ
وان تكن العُتبى فأحْرِ بها احري

ولكن الامير ظل معرضاً عنه فكانت جفوة ثقيلة على الشاعر آثر ان يسلي نفسه فيها ، بالاسفار والتجوال في الامارات المجاورة .

ويبدو انه كان على تماس مع المعتضد أمير اشبيلية يراسله ويتوسط اليه الوسطاء محاولا نيل الحظوة عنده تأميناً لما قد يأتي به المستقبل المجهول .

ويعود الامير أبو الوليد بعد مدة عن قراره ويعيد الشاعر الى مناصبه السابقة ، وفي تلك الفترة العصيبة التي كان يحياها الشاعر تثور فتنة في قرطبة يقف وراءها بنو ذكوان محاولين فيها إسقاط حكم بني جهور ، ولكن الامير يغلق عليهم المنافذ وتسعفه حنكته في اخماد الفتنة وسحق أقطابها : لكنها لا تمر دون أن تلفح الشاعر بنارها لما له من علاقات حميمة مع بني ذكوان ، فيدخل أعداء الشاعر في روع الامير ان ابن زيدون له في هذه الفتنة نصيب كبير من التدبير والمشاركة ، ويكاد الشك أن يرسخ في نفس ابي الوليد فتكون هوة ما بينه وبين الشاعر ملؤها الريبة والحذر ، ويحاول الشاعر اثبات براءته مما أُسند اليه ، والقاء اللوم على بني ذكوان ولكن دون جدوى :

قل للوزير الذي تأميله وزري :
ان ضاق مضطربٌ او هال مطلعُ
اصغ لهمس عتاب تحته مقةٌ
يكلف النفس منها فوق ما تسعُ
ما للعتاب الذي احصفتَ عقدته
قد خامرَ القلب من تضييعه جزعُ

لا تستَجزْ وضع قدري بعد رفعكه

فالله لا يرفع القـدر الذي تَضـعْ

وأحسّ الشاعر ـ والامير لا يعر توسلاته اهتماماً ـ ان الشك قد احتل من نفس الامير مواقع اليقين ، وحرك فيه هواجس النقمة عليه ، وأغلق دونه أبواب الـرجاء · تـرى ما الذي بقي له في قرطبة ، وما الذي يشده اليها ، ولاده ...؟ وقـد اختارت لهـا البـديل ، أم مُلْكٌ صـدعته ضـربات أعدائه ..؟

وكان قراره الرحيل ، وما يبقيه والمعتضد في اشـبيلية فتح يديه لاحتضانه ؟

وكانت وجهته بطليوس ، فأقام فيها فترة لم تدم طويلا ، وكانت أيامه فيها ثقالا عليه وايما ثقل لما كان يملأ نفسه من عظيم الاسى والحزن على ما ضاع من أيامه السعيدة ، وليس بأقل من ذلك الاسى ما كان يدور في خلده من حذر وخشية من ايامه الآتية ، وفي هذه الامارة كانت له في الشعر صورٌ كم حملها من شجون :

يا دمعُ صبْ ما شئتَ أن تصوبا

ويـا فـؤآدي آن أن تـذوبا

اذ الـرزايا أصبحـت ضروبـا

لـم أر لـي في اهلهـا ضريبـا

وله ايضاً يقول :

هل تذكرون غريباً عاده شجنٌ
من ذكركم وجفا اجفانه الوسنُ
يخفي لواعجه والشوق يفضحه
فقد تساوى لديه السرُّ والعلنُ
يا ويلتاه ! أيبقى في جوانحه
فؤاده وهو بالاطلال مرتهنُ

ومنها :

ان كان عادكمو عيدٌ فربَّ فتيً
بالشوق قد عاده من ذكركم حَزَنُ
وأفردته الليالي من احبته
فبات ينشدها مما جنى الزمنُ :
(بما التعللُ ؟ لا أهلٌ ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكنُ)

وأثناء اقامته هذه كانت المفاوضات جارية على قدم وساق بين الشاعر والمعتضد يسعى فيها باخلاص صديقه الوزير أبو عامر بن مسلمة حتى أبدى المعتضد استعداده لضم الشاعر الى بلاطه ·

٣ - في عهد المعتضد بن عباد :

لم يكن شاعرنا هو الرجل الوحيد الذي هجر قرطبة وفضلَ عليها امارة المعتضد ، فقد سبقه لذلك كثيرون بعد نقض بيعة هشام الثاني ، ولعل من أبرزهم أبا مروان بن عبدالله بن أحمد ، وصديقه أبا عامر بن مسلمة وسواهم كثيرون .

وقد أكرم المعتضد ابن زيدون غاية الاكرام ، واحتفى به وجعله من خواصه ، يجالسه في خلواته ويطارحه القصائد والاشعار ، وأباح له التنزه في حدائق قصره والاختلاط بجواريه والاستحمام في حمّامه ، وكان له مركز الصدارة بين شعراء مجلسه . وقد جعله مستشاره الاول ثم سفيره لدى ملوك الطوائف وأسبغ عليه لقب (ذي الوزارتين) ثم جعله رئيساً لوزرائه ومنحه صلاحية واسعة للتصرف في الامور كما يرى . ولكن ابن زيدون - ولطبعه الطموح - أراد أن يجمع بين يديه كلّ اعنة الدولة ، فراح يبذل جهوده للوصول الى منصب الكتابة وهو مركزٌ يشرف منه على كل اسرار الدولة وذلك ما جعله في مواجهةٍ حامية مع أبي الحسن علي بن غالب بن حصن كاتب الامارة ، ولعل المعتضد بما كان يحمله من طبع ميّالٍ للانتقام والصراع كان يتلذذ برؤية رجال دولته وهم في منافسة وعداء لذلك فأنه كان يقف مما يجري بين ابن زيدون وابن حصن موقف المتفرج .

وابو حصن كان رجلا ذا طيشٍ وخفةٍ وتهور وقلة اناة ، ولكنه كان شاعرا مجيدا كثيرا ما تعينه موهبته على ارتجال قصائد يمدح الامير بها ويعرض بأبن زيدون ويستخف به ، ومن امثلة ذلك قوله :

فدونك عذراء المعاني ابتدعتها
تساعدني عفواً ولم تتعذرِ
اذا ما الرواة استنشدتها تبرقعت
لها أوجهٌ من حشمةٍ وتغيرِ
وينكلُ عنها شاعر المصر كله
الا فاضحكن من شاعر المصر وافخرِ
ودونك فاحكم بين نظمي ونظمهُ
بذهنٍ ذكيٍ ثم قدم وأخرِ
وما أنت ممن يحمد السيف عنده
لجودةِ صقلٍ وهو غيرُ مُذكّرِ

ولكن ابن زيدون واجه الامر بدهاءٍ ومكرٍ واناة وراح يؤلب عليه الامير ويقنعه بأن ابن حصن غير كفءٍ لما يشغله من منصب ، وتمكن بعد فترة من اثارة غضب المعتضد عليه ففتك به ، والى ذلك يشير ابن بسام بقوله (ولم يزل أبو الوليد يطرق ويحلم ، ويسدي في أمره ويلحم ، وابن حصن يغتر ويقدم ، ففاز ابن زيدون بحلمه وتوقره ، وهوى نجم ابن حصن بين اغتراره وتهوره فزلت قدمه ، وطاح دمه) .

ولم يسند المعتضد المنصب لابن زيدون مباشرة بعد ابن

حصن ، بل اجتذب اليه الكاتب ابن عبدالبر الذي طارت شهرته في الامارات وسما نجمه عنـد الملوك ، وأسـند اليـه منصب الكتابة فكان ذلك أمراً ضاق به صدر ابن زيدون لـما يشكله هذا الرجل من منافس له في الامارة ، فراح يتحين الفـرص للايقاع به ، ولكن يبدو ان ابن عبدالبر قد وفر على الشاعر متاعب المحاولة فسار الى حتفه برجله حينما كتب رسالة عن لسان المعتضد بعد فتكه بابنه وولي عهده اسماعيل ولم يراع فيها أية روية أو تدبير مما دفع الامير الى الغضب والعزم على الفتك به لولا الوساطات التي حالت دون ذلك وجعلته يكتفي بعـزله .

وأخيرا استطاع ابن زيدون وبمعونة أبي محمد بن الجد أن ينال مراده فيحصل على المنصب الذي كان يريد اضافته لما كان يشغله ، وقد أحسن ادارة ذلك المركز ووفق فيه خـير توفيق وبذلك أصبح ماسكاً لزمام كل امور الدولة وشؤونها .

وتوفي المعتضد سنة ٤٦١هـ بعد أن قضى الشاعر في ظله قرابة عشرين عاماً كان له أبلغ الاثر في قيـادة الدولـة وتوجيهها توجيهاً حسنا ، ولعل التجارب التي مرت بالشاعر قد زادته خبرة ودراية ووقته من فتك وقساوة الامير الذي قلّما نجا منه أحد حتى انه فتك بأبنه وولي عهده ، ولما سُئل الشاعر عن سرّ نجاته من فتك الامير به بعد وفاته قال :

(كنت كمن يمسك بأذني الاسد يتقي سطوته تركه او أمسكه) .

٤ ـ في عهد المعتمد بن عباد :

والمعتمد كان هو الخليفة الذي قاد السفينة بعد ابيه المعتضد ، وهو الصديق الودود المخلص الذي يكن للشاعر حباً جماً ، كان قد تتلمذ على يده طيلة عشرين عاماً فأطلعه ابن زيدون على أغلب صنوف الادب ودربه على صياغة الشعر ونظمه حتى صار شاعرا مقتدرا مكنته موهبته كثيرا على التباري مع معلمه ومطارحته بأعذب القصائد .

ومن صور اجلال الامير له ان أباه المعتضد حينما طلب أن يكون مجلس ولي عهده مرتفعاً عن مجلس ابن زيدون كتب المعتمد يخاطب استاذه الشاعر :

أيها المنحط عني مجلساً
ولــه في القلب أعلى مجلسِ
بفؤادي لك حب يقتضي
ان تُرى تحملُ فوق الأرؤسِ

وازاء هذا الادب العالي كتب الشاعر قصيدة بعثها له استهلها بقوله :

أسقيط الطلّ فوق النرجس
ام نسيم الروض تحت الحندسِ
ام قريضٌ جاءني من ملكٍ
مالكٍ بالبر رقّ الأنفسِ

وقد كان عهد الشاعر في حياة المعتمد من اهدا ايامه وأهنئها ، لما كانت بينهما من مودة ومحبة أوحت لهما بالكثير من الخلوات يقضيان فيها أمتع الاوقات ، وكم حاول حساد الشاعر اثارة الامير عليه ولكنهم فشلوا في نيل مرادهم ، ومن ذلك أنهم نسبوا للشاعر حين بلغه نعي المعتضد هجاءاً أصبح على كل لسان ، ثم بعثوا للامير قصيدة يحثوه فيها على الفتك بابن زيدون جاء فيها :

يا أيها الملك العلىّ الاعظمُ
اقطعْ وريدي كل باغٍ ينئمُ
واحسم بسيفك داء كل منافقٍ
يبدي الجميل وضدّ ذلك يكتمُ

وفيها أيضاً :

لا تحقرن من الكلام قليله
ان الكلام له سيوف تكلمُ
والملْكُ يحمي ملكه عن لفظةٍ
تسري فتجلي عن دواهٍ تعظْمُ
فضلا عن الكلم الذي قد أصبحت
غوغاؤنا جهراً به تتكلَمُ

ولكن الامير كان أعرف بما يرومه الوشاة فأجابهم بحده :

كَذَبَتْ مناكم ، صرّحوا أو جمجموا
الدينُ امتنُ والمروءةُ اكرمُ
خنتم ورمتم ان اخون وانما
حاولتموا أن يستخفّ يلملَمُ

وختم ردّه بقوله :

كفوا والاّ فارقبوا لـي بطشةً
يلقي السـفيه بمثلهـا فيحْلَمُ

وما أن سمع الشاعر بموقف الامير من اولئك السفهاء حتى هرع اليه شاكراً يطري على ذلك الوفاء الفذ :

لي منك ـ فليذب الحسود تلضياً ـ
لطـف المكانة والمحـل الاكـرَمُ
لـم تُلف صاغيتي لـديك مُضاعةً
كـلا ولا خفي اصطناعي الاقـدمُ
بل أوسعت حِفظاً وصدقَ رعايةٍ
ذمـم" موثقـة العُـرا لا تفصَمُ

وتستمر أمـراس الـود بينهما متينـة تسودها الالفـة والوئام ، ويستطيع الامير بحزمه ، وبحسن تدبير وتخطيط الشاعر أن يفتح قرطبة التي عزّت على أبيه وجده لتسعٍ بقين من شعبان سنة ٤٦٢هـ .

وتقرُ عين الشاعر ، ويطمئن قلبه وقد استقر بـه المطاف الاخير في موطن صباه واهله وحبه .

ولـم يطل مقامـه في موطنـه الاول اذ تثـور فتنة في اشبيلية بذي الحجة سنة ٤٦٢هـ يتخذها أعداؤه ذريعـة للايقاع به ، وكان المعتمد قد بعث ابنه الحاجب سراج الدولة

على راس قوة لقمعها ، ولكن ابن مارتين قائد جيش المعتمد في قرطبة وابن عمار الوزير أشارا عليه بارسال ابن زيدون قائدا للحملة لما له في قلوب أهل اشبيلية من موقع حسن ولما يتمتع به من ذكاء وفطنة . وتلقى هذه الفكرة ترحيباً في نفس الامير في حين لم تكن هي الا مكيدة كان يراد بها أبعاد الشاعر عن قرطبة .

ولم تستدر اعتذارات ابن زيدون وسوء صحته وتدهورها منه عاطفة ، فيرضخ للامر مرغماً ويمضي مكرهاً ، وتفعل مشاق السفر وثقل المهمة فعلتها فيه فتسوء صحته أكثر فيكون حتفه في صدر رجب سنة ٤٦٣هـ بعد أن قضى في ولاية المعتمد قرابة عامين وشهر لا اكثر .

وتنطفىء بذلك جذوة وهاجة في الاندلس أغنت التاريخ كثيرا بقبسها .

وتكون حسرة الندم في نفس المعتمد اليمة موجعة ، وفي نفوس أهل قرطبة أعمق وأدمى مما يدفع الامير الى محاولة جبر خطئه بتعيين ابن الشاعر مكان ابيه ثم بجعله والياً على اشبيلية . وتسعف خلف الشاعر مواهبه فيقوم بما أوكل اليه خير قيام ، ويظل في خدمة المعتمد حتى يقتل سنة ٤٨٤هـ .

الفصل الثالث

ولادة

فاتنة الاندلس ، وحسناء قرطبة التي أججت نيران الهيم والحب في قلوب الشعراء واهل الادب فكانت سبباً أزرى ببعض ، واسعد بعضاً آخر ، ولادة بنت محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الناصري الملقب بالمستكفي والذي تولى الخلافة عام ٤١٤ هـ ولم ينعم بها اكثر من تسعة عشر شهرا حيث اطاح به خصومه .

اما سنة ولادتها فأن اغلب المصادر لم تتطرق اليه ولكن البعض يعتقد ان مولدها كان قبيل سنة ٣٩٢هـ وهو رأي أساسه الاستنتاج[١] . وقد كانت وحيدة أبويها ، عاشت في كنفهما حتى سن الرابعة والعشرين من العمر وهي منغمسة في عزٍ وجاهٍ طيبين .

وقد كانت ــ كما وصفها ابن زيدون في شعره ــ بيضاء الوجه ، شعرها أصفر ، ممشوقة القوام ، طويلة العنق ، بارزة الصدر ، دقيقة الخصر ، عيناها حوراوان أهدابهما طويلة ، يزين خدّها خالٌ اسود :

مفضضُ الثغر له نقطةٌ
من عنبرٍ في خده المذهب[٢]

ويُرجح ان ولادة كانت قد علقت بأبن زيدون في عصر ابي الحزم بن جهور ، حيث هدأت قرطبة وانتهت الفتن

(١) وليم الخازن : المصدر السابق .
(٢) علي عبدالعظيم : المصدر السابق .

وسكن الناس الى حياة الدعة والهدوء ، وهو نفس العصر الذي لمع فيه نجم الشاعر واصبح رجلا لـه مركزه وجلاله في الدولة ، كما ان طور عيشها بعد الاطاحة بملك أبيها شجع على التعارف بينها وبين الشاعر وسواه من كبار رجال قرطبة ، فقد فتحت أبواب بيتها للشعراء وأهل الادب وتصدرت مجلساً لهم عندها .

وقد تركت القيود الاجتماعية جانباً وأعلنت تحررها مما كان مسنوناً لنساء ذلك العصر ، فكانت أول من سنّ للنساء سنة الانكشاف وترك الحجاب، وجعلت من قصرها منتدىً لاهل المعرفة في الادب يتطارحون الشعر فيه وينعمون بسماع الموسيقى والغناء عندها ، ولعل هذا المنتدى هو الذي عرّف الشاعر ولادة وعرّفها به .

وقد كان لانكشافها هذا واختلاطها السافر بالرجال اثر كبير في التجني عليها والنيل من سمعتها ، حيث كان كثير من المؤرخين في حيرةٍ واختلافٍ من أمرها ومن نقاوة عفتها فكان للبعض فيه مطعن وللبعض الآخر راي مغاير ، فقد ورد عن ابن بسام ما نصه : (..... ويتهالك افراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، الى سهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم انساب وطهارة أثواب ، الا أنها ـ سمح الله لها وتغمد زللها ـ اطرحت التحصيل ،

واوجدت الى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها) ، وعن عبدالله بن مكي انه قال : (لم يكن لها تصاون يطابق شرفها) ، كما ذكر البعض انها كانت قد طرزت على عاتق ثوبها قولها :

أنا والله أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي واتيه تيها

امكن عاشقي من صحن خدي
واعطي قبلتي من يشتهيها

كل ذلك مكّن الكثيرين من دارسي الادب والمؤرخين من التحامل عليها في كتبهم موجهين لها شتى التهم ، ونحن نرى ان في ذلك الكثير من التجني ، فولادة كما نعتقد تحررت فعلا من القيود التي كانت النساء تتمسك بها ، وسلكت سلوكاً كان خرقاً لما كان متعارفاً عليه ، ولكنها لم تصل الى حد السقوط ، فأبن بسام في قالته التي سلفت كان محتفظاً في نقل الخبر ولذلك نجده وهو يتحدث عن ولادة كثيرا ما يحاول التنصل من مسؤولية الرواية فتارة يقول (هكذا وجدت الخبر) وتارة اخرى يختتم عبارته بـ (وابرأ الى الله من عهدة ناقليه) وهذا يدل على انه لم يكن على يقين من صحة ما نُقلَ اليه ، أو لعلَ ابن بسام ــ وهو رجل لابد وانه كان يرى بعين عصره ــ كان يرى في اختلاطها بالرجال سقوطاً واستهتاراً

وانحداراً من الخلق في حين لا نستطيع ان نقرر ونحن نرى بعين عصرنا هذا الا ان ذلك قلة في الحياء ، فقد ذكر بامانة انها كانت طاهرة الاثواب ، عالية النصاب ولم يؤاخذها الا على قلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها التي كانت تتجلى في الاختلاط وسماع الشعر وقرضه وسماع الغناء والموسيقى وهذا ما لا يبيح لنا النيل من عفتها بما يجرح او يخدش .

ولو عدنا الى راي عبدالله بن مكي حين قال (لم يكن لها تصاون يطابق شرفها) لوجدناه يبدي اعتراضه على سلوك لم يكن بمستوى الشرف الذي تتمتع به والذي لم يتعرض له بما لا يستحب ، وهو في قالته هذه وكأنه اعاد او أكد ما قاله ابن بسام .

أما ما ورد عما طرزته على ثوبها (انا والله أصلح للمعالي ... الخ) فانا نرى ان ذلك محل نظر ولا يستبعد أن يكون في الرواية خلل لم يكن متعمداً ، أو يكون بعض حسادها قد غيروا في قولها ذلك ، فهي في البيت الاول تقسم بأنها تصلح للمعالي وتتيه على من دونها وفي البيت الثاني تبدي استعداداً للسماح للعاشق في لثم خدها وتزيد في ذلك بأن تجعل قبلتها رخيصة بوسع كل من يشتهيها أن ينالها ...! ترى اي علياء وتيه ذلك الذي تفخر به وهي المراة التي تمنح كل فرد شهي قبلتها ، ومن ذا الذي لا يشتهي قبلة حسناء كولادة ..؟

الا ترى ـ عزيزي القاريء ان في ذلك مغالطة او خللا ٠٠؟ وعلى احتمال بعيد ، لو كان قولها (واعطي قبلتي اذ يشتهيها) الا يكون في القول شيء من العقلانية والقبول اذ تجعل قبلتها ممكنة لذلك العاشق الذي ذكرته في صدر البيت الثاني فقط لا لكل عاشق[١] ٠

نخلص الى القول من كل ما ورد ان ولادة حينما اعلنت انكشافها ، وطرحت الحجاب ، واختلطت بالرجال اختلاطاً سافراً ، كانت تحاول نسيان الفاجعة التي أصابت ملكها بصفتها اميرة ، وأباها كملك ، وحاولت أن تعيش باسلوب جديد يسير بذكرها في البلدان فتعوض نفسها ما فاتها من سلطان ٠

وهناك من أخذ بعض أقوال ابن زيدون وأشعاره مأخذ الاعترافات وحمل عليها ما كان يريد التوصل اليه من وجهات النظر ، ففي قوله (كنت في أيام الشباب ، وغمرة التصاب ، هائماً بغادةٍ تدعى ولادة ٠٠) الى أن يقول (وبتنا بليلةٍ نجني اقحوان الثغور ، ونقطف رمان الصدور) ، في قوله هذا كانت للبعض وقفات من التأمل المريب نسبوا الشبهات من خلاله لولادة ، ونحن نقول ان الشاعر في بداية قطعته النثرية قال (كنت في ايام الشباب ، وغمرة التصاب ، هائماً بغادةٍ تدعى

---

(١) عبدالصاحب شكر : بحوث أدبية ٠

ولادة ، ارى الحياة متعلقة بقربها ، ولا يزيدني امتناعها الا اغتباطا بها) ، وهذا يعني انه كشف عن امتناعها والتزامها وان ذلك الامتناع زاده فرحاً بها ، ولو كانت ولاده قد اباحت نفسها برخص لما ظلّ متعلقاً بها حتى مماته ولأعرض عنها كما يعرض عن المتاع الرخيص ، ولسنا نرى هذه الشطحات الا أحد الاحتمالات التالية : أما ان يكون فيما ورد عنه تصحيف وتحريف مُغرض ، وأما اجتهادٌ اضافة بعض الدارسين لأدبه بعد ضياع الكثير من اثاره ، وأما أن يكون قد قال ذلك غيظاً منها بعد أن علقت بغريمه الوزير ابن عبدوس ، والا كيف نفسر قوله :

وغـرك من عهـد ولادةٍ
سراب ترآى وبـرقٌ ومَضْ
هي المـاء تأبى عـلى قابضٍ
ويمنع زبـدته مَنْ مَخَضْ

وقد كان موقف ولادة المضطرب من الشاعر والمتذبذب ما بين الوصل والهجران مثار آراءٍ كثيرة ، فشرع الكثيرون من الدارسين من عرب ومستشرقين يضمون التحليلات ووجهات النظر لذلك ، فمنهم من اتهمها بالجنسية المثلية وهي ميل المراة للمرأة والرجل للرجل واستدلوا بعلاقتها مع مهجة بنت التياني على ذلك وشبهوها بالشاعرة الاغريقية سافو .

ولكن الاستاذ علي عبدالعظيم في كتابه (ديوان ابن زيدون) بدفع هذا الراي بأن مهجة قد هجت ولادة واتهمتها بالجنسية المغايرة حين قالت :

ولادةٌ قــد صــرتِ ولادة
من غير بعلٍ فُضِحَ الكاتِمُ
حكتْ لناَ مريم : لكنما
نخلةُ هذي (...) قائِم

واعتقد بأن ولادة كانت مصابة بالسادية وهي الرغبة في تعذيب المحبوب ، والفرد الذي يعاني من هذا المرض لا يجد ضالته الا مع الفرد المصاب بمرض « الماسوشية » وهي نزعة قبول التعذيب من الحبيب ، ولذلك نراها رضيب بأبن عبدوس وعاشت معه طويلا لما كان يحمله من نفس تحاول ارضاءها بشتى السبل .

ولادة وابن زيدون :

ومع ابن زيدون كان لها حب وهيام ، وعشق تحدثت به الالسن كثيرا ، ونال حظاً كبيراً من الشرح والوصف في كتب التاريخ ... والمتحدثين فيما تحدثوا .. واسهبوا كل الحق ، فذلك الحب كان السر وراء عبقرية ذلك الشاعر الفحل ، وكان السبب وراء ذيوع صيته واسمه .. ، وكيف لا وذلك الحب هو الذي أوحى له بكل تلك القصائد الرائعة والرسائل البديعة التي كانت صورا خالدة من صور الابداع العربي .

ومع حجم ذلك الاهتمام فان الرواة لم يركزوا الا على سمات وآثار ذلك الحب ولم يحدثونا بدقة عن بداياته متى كانت ..؟ وكيف تمت ..؟ وأنّا تسنى للشاعر أن يوقع ولادة في حبائله ..؟ كل ذلك لا نعرف عنه شيئاً اذ لم نحصل على أي حقائق بصدده على ضوء ما تيسر لنا من مصادر .

اننا نعتقد ان حب ابن زيدون لولادة قد ابتدأ في عصر ابي الحزم بن جهور بعد سقوط دولة الامويين وتمتع قرطبة بالهدوء والاستقرار (١) ، فحين ذاك كان ان فتحت ولادة أبواب بيتها للشعراء والادباء ورجال الفن والكياسة ، ولعل ابن زيدون بارتياده لندواتها ومجالسها أوقع نفسه في شرك عشقها فهو ما ان رآها ولمح حسنها وفتنتها وتحسس مواهبها حتى

---

(١) وليم الخازن : المصدر السابق .

كان قلبه ينزع اليها ، وروحه تطير نحوها ٠٠ فهو الحب الذي لم يكن في باله وحسبانه ٠ وهي ما ان رات ذلك الرجل الوسيم البهي الطلعة المرموق المكانة العالي الجاه ٠٠ الشاعر الموهوب ورأت تفوقه على كل من يجتمع لديهـا حتى أحست بما أحسه نحوها ٠٠ فهو العشق الذي لم تتوقع مجيئه بهذه السرعة ٠

وكان ما بينهما من حب أروع ما تغنت به قرطبة واجمل ما تناقل أخباره الناس ٠٠ فما عاد الشاعر يـرى الا" مَنْ يحب ، فهو أنيسه الذي اشتهر به وقاسى فيه ما قاسى :

يا مَنْ غدوتُ به في الناس مشتهرا
قلبي عليك يقاسي الهـمَّ والفِكَرا
ان غبتَ لـم ألقَ انساناً يؤنسني
وان حضرت فكل الناس قد حَضرا

ويبدو ان ابن زيدون كان مستعدا لقبول كل ما يصيبه من ذلك الحب مهما صَعُب :

فان يكن الهـوى داءٌ مميتاً
لمن يهـوى فأني مستميتُ

ومستعدا لقبول كل ما يبدو من المحبوب :

ما شئتَ فاصنعهُ ، كل منك محتمل"
والذنبُ مفتفر" ، والعـذر مقبـولُ

لو كنت حظي لم اطلب به بدلاً

أو نلتُ منك الرضا لم يبقَ مأمولُ

وجاهزاً للفداء بنفسه من أجلها :

ولو انّ الزمان أطاع حكمي

فديتك ـ من مكارهِهِ ـ بنفسي

وقد منحها ذلك الحب أجمل الليالي وساعات الوصال :

زارني ـ بعد هجعة ـ والثريا

راحةٌ تقْدِر الظلام بشبْرِ

والدُجى ـ من نجومهِ ـ في عقودٍ

يتلألأن من سماكٍ ونسرِ

فرشفت الرضاب أعذبَ رشفٍ

وهصرتُ القضيبَ الطفَ هصْرِ

ونعمنا بلفِ جسمٍ بجسمٍ

ـ للتصافي ـ وقرع ثغرٍ بثغرِ

يالها ليلةٍ تجلى دجاها

ـ من سنا وجنتيه ـ عن ضوء فجرِ

قصَّر الوصلُ عمرَها وبودي

ان يطول القصير منها بعمري

ولكن عيش الشاعر لم يخلُ من رجالٍ ينفصون عليه ذلك الحب وينافسونه في نيل الحظوة لدى ولادة ، وأبرز من نافسه في ذلك الحب الوزير ابن عبدوس وأبو عبدالله بن القلاس البطلوسي ، ويبدو ان الثاني حكّم عقله فرأى ان ترك ولادة خيرٌ من مواجهة المتاعب وما يترتب على الوقوف في طريق ابن زيدون خصوصاً بعد أن تلقى منه قصيدته التي ينصحه فيها باعادة النظر فيما هو زاعم ان يفعله ، والتي جاء فيها :

أعد نظراً فان البغي مما لم يزل يَصْرَعْ
ولا تطمع التي تفويك فهي لبغيهم أطوعْ
تعتَّل اذ أتى خطبٌ وانف الفحل لا يقرعْ
ولا تك منك تلك الدار بالمرأى ولا المسمعْ
فان قصارك الدهليز حين سواك في المضجعْ

وبالفعل انسحب ابن القلاس من مواجهة ابن زيدون ولم يبق أمامه الا ابن عبدوس ، وقد كان عنيداً الى الحدّ الذي جعله يحتمل كلّ ما ترتب على هذه المغامرة ، فلا قصائد ابن زيدون ولا رسائله ولا حتى تمنع ولادة عنه أثناه عن عزمه ، فقد حذره الشاعر أول الامر بقصيدةٍ منها :

أثرتَ هزبرَ الشرى اذ ربضْ
ونبهته اذ هدا فأغتمضْ

حذار حذار فان الكريم
اذا سيم خسفاً ابى فامتعض
فان سكون الشجاع النهو
س ليس بمانعه أن يعض
اعيذك من ان ترى منزعي
اذا وتري بالمنايا انقبض

ولم يزدجر ابن عبدوس بل اندفع أكثر ، فأرسل امرأة الى ولادة تستميلها اليه فكتب ابن زيدون رسالته الهزلية عن لسان ولادة وبعثها اليه ، وقد تعرض فيها لغريمه تعرضاً جارحاً نال منه ومن شخصيته الكثير ، ولكن ابن عبدوس بما عُرف عنه من صلف وعناد ظلّ ماضياً في نهجه لا يوقفه شيء ، ولعل المنافسة التي جرت بينه وبين الشاعر هي التي دفعت ابن عبدوس للكيد عند ابي الحزم لمنافسه .

وقد استمر حب الشاعر لولادة ، ودام التواصل ما بينهما طيلة عهد ابي الحزم ولم تكدر صفوه الا عثرات بسيطة قبل دخوله السجن ، ولكن الهوة توسعت بينهما - كما يبدو - في عهد ابي الوليد بن جهور ووصلت الى حد الفرقة مما جعل الشاعر يتخذ قراره بسهولة في ترك قرطبة واللجوء الى اشبيلية حين ضاقت به امارته أثناء المحنة .

وقد أورد المؤرخون أسباباً للفرقة التي وقعت بينهما

والتي قطّعت وشائج الحب الذي كان ، ولعل من المناسب ان نشير لتلك الاسباب ولو بايجاز ، فمنها :

أ - حكاية الشاعر مع المغنيــة عُتبه وصيفة ولادة : فقــد حصل والشاعر في مجلسها أن غنت الوصيفة بيتين من الشعر قالت فيهما :

احبتنــا انــي بلغتُ مؤملــي
وساعدني دهري وواصلني حبي
وجــاء يهنيني البشـــير بقــربه
فأعطيته نفسي وزدت لــه قلبي

وحينمــا أحس الشاعر بالطـرب ســألها الاعــادة دون الاستئذان من ولاده مما دفعها للغضب وضرب عتبــة ، وفي ذلك قال الشاعر :

وما ضَرَبت عُتبى لذنبٍ أتت به
ولكنمــا ولادة تشـــتهي ضـــربي
فقامت تجـر الـذيل عاثـرةً بــه
وتمسح طـلّ الدمع بالعنم الرطبِ

وكانت ساعةُ غضبٍ اعقبها صدٌ وعتاب قالت فيــه ولاده واجادت :

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا
لــم تهــوَ جاريتي ولــم تتخــيرِ

وتـركت غصنـــاً مثمـراً بجماله
وجنحتَ للغصن الذي لـم يثمـر

ولعل ولادة كانت قد فسرت سلوك الشاعر هذا بأنـه ميل منه لوصيفتها مما كان سبباً في اثارة غيرتها .

ب ـ اذاعـة ابـن زيـدون لاسرار الحب والليالي الملاح التي قضاها مع ولادة مما جعلها تغضب وتثور ثائرتها وعن هذا اعتذر الشاعر لها بقوله :

والله ما ساءني اني خفيتُ ضنىً
بل ساءني انّ سري بالضنى علَنَ
لو كان أمري في كتـم الهوى بيدي
ما كان يعلـم مـا في قلبي البـدنُ

جـ ـ نقد الشاعر لشعرها : فقد ارسلت ولادة لـه أبيـاتاً استهلتها بقولها :

الا هل لنا من بعـد هـذا التفرق
سـبيلٌ فيشكو كـل حب بما لقي

وختمتها بقولها :

سقى الله ارضاً قد غدت لكَ منزلاً
بكل سكوبٍ هاطل الودق مغدقِ

فبعث لها يعلمها ان القدماء عابوا على ذي الرمة قوله :

ألا أسلمي يا دار مـي على البلى

ولا زال منهـلا بجـرعائك القطـر

مع انه قدم الدعاء بالسلامة ، واشار ان من المستحسن قوله الآخـر :

فسقى ديـارك غـير مفسدها

صـوب الربيـع وديمـة تهمـي

وربما كان هذا الموقف سبباً لنفور ولادة منه لما كان يحمله من كبرياء واعتداد بالذات .

د ــ ويبدو ان الشاعر في لحظة من لحظات الغضب والتهور قد أقدم على ضرب الحبيبة بدليل قوله :

ان تكن نالتك بالضـرب يـدي

واصـابتك بمـا لـم اردِ

فلقـد كنت لعمـري فـادياً

لـك بالمـال وبعض الولـد

نثقـي مني بعهـد ثـابت

وضمـير خـالص المعتقـد

ولئـن سـاءك يـوم فأعلمـي

ان سـيتلوه سـرور بغـد

تلك هي الاسباب التي كانت القبر الذي دُفن فيه ذلك الحب بأعتقاد بعض المؤرخين ، ونحن نرى ان هذه الاسباب ليست كافية لهدم صرح ذلك الحب المتين الذي بقي الشاعر يتغنى به حتى مماته ، ولربما كان الشاعر قد لمس في المحبوبة غرور" منيعة اعتدادها — الطاغي على حد المعقول — بجمالها وجاهها جعلها قلقة في موقفها منه ، مما دفعه الى اليأس من الظفر بها فكانت القطيعة أمر" لا مفرً منه ٠

●●●

شاعريتها :ـ

قرضت ولادة الشعر ، واحسنت في ذلك ، وما وصل الينا منه لم يكن بالكثير ، ولكنه كان رصيناً مسبوكاً سلس المعاني والمفردات ، خالٍ من الحشو والجمل الدخيلة ، ورغم حلاوة معانيه فانها كانت احياناً تغالي فيه ويذهب مذهباً بعيداً ولكن دونما احتواءٍ للمفردات الثقيلة على السمع .

ونحن نعتقد ان ولادة لم تنل شهرتها بما نظمت من الشعر فالاندلس ضمت شاعرات كثيرات لم يكن لهنَّ ما لها من صيتٍ وسمعة رغم كثرة وجودة ما قمن بنظمه ، ولكنها اشتهرت اذ اقترن اسمها بأسم ابن زيدون الشاعر العلم في الاندلس .

ونرى من المناسب هنا ان نورد بعضاً من شعرها :
فقد كتبت للحبيب تخبره بموعد زيارةٍ لها :

ترقب اذا جنّ الظلام زيارتي
فاني رأيت الليل أكتمَ للسرِّ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلُع وبالنجم لم يسرِ

وبعثت له تشكو شدة وقع الفرقة عليها :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرقِ
سبيل" فيشكو كل حبٍّ بما لقي

وقد كنت أوقات التزاور في الشتا

أبيتُ على جمرٍ من الشوق محرقِ

فكيف وقد امسيت في دار قطعةٍ

لقد عجل المقدار ما كنتُ اتقي

سقى الله أرضاً قد غدت له منزلاً

بكل سكوبٍ هاطل الودق مغدقِ

ولها أيضا تعاتبه اذ أحست ميلا منه لجاريتها عتبه وقد أجادت في قولها وأحسنت:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا

لم تهوَ جاريتي ولم تتخيرِ

وتركت غصناً مثمراً بجماله

وجنحت للغصن الذي لم يثمرِ

ولقد علمت بأنني بدر السما

لكن دهيت لشقوتي بالمشتري

هذا عن غزلها ، أما هجاءها فهو مقذع مر كثيراً ما تضمنه الكلمات النابية والعبارات الجارحة مما جعل الكثيرين ومنهم ابن بسام يترفعون عن ذكره ، وقد شبهها البعض بدعبل الخزاعي في محش هجائها ، ومن امثلة ذلك قولها في ابن زيدون :

ولقيت المسدّس' وهو نعت"
تفارقك الحياة' ولا يفارق
فلوطي" ومأبون وزان
وديوث وقرنان" وسارق

ولها أيضا تهجوه وتعرض بغلام له اسمه علي:

ان ابن زيدون على جهله
يغتابني ظلماً ولا ذنب لي
يلحظني شزراً اذا جئته
كأنما جئت' لأخصي «علي»

ولها أيضاً:

ان ابن زيدون له فقحة
تعشق السراويل
لو أبصرت على نخلة
صارت من الطير الابابيل

ولها في هجاء الاصبحي:

يا اصبحيّ اهنأ فكم نعمة
جاءتك من ذي العرش رب المنن
قد نلت باست ابنك ما لم ينل
ب ... بوران ابوها الحسن

هذا ولا نعرف عنها انها قالت شعرا في المدح ولا في الوصف فشعرها اقتصر على الغزل والهجاء على حدّ ما وصل الينا في المراجع ٠

هذه هي ولاده الحسناء التي دخلت قلب ابن زيدون ولم تحفظ له الودّ بل تحولت الى غريمه ابن‌عبدوس حيث ظلّ يتودد ويتقرب اليها حتى رضيت به فظلّ معها يرعاها حتى شيخوختها ، وقد قطفت يد المنية روحها عام ٤٨٤هـ ومنهم من قال ٤٨٠هـ بعد أن تجاوزت الثمانين من العمر ٠

هذا ما كان من أمر الحبيبين ، ولاده وقد رضيت بأبن عبدوس بديلا ، أما ابن زيدون فلا نعرف انه علق امرأة بعدها ولربما لم يكن له من قبلها سواها ٠ ولا اشارة في المصادر الى انه تزوج وكل ما لدينا ما ذكره الصفدي[1] من انه وقف يتلقى العزاء في ابنته فقيل انه ما أعاد في ذلك الموقف عبارة قالها لاحد ، ولكن ممن كانت ابنته هذه ومن هي زوجته التي أنجبتها ٠٠؟ ذلك ما لا نعرف عنه شيء فنتركه لمن يستطيع أن يكشف سرّه فنكون له من الشاكرين ٠

---

(١) علي عبدالعظيم : المصدر السابق ٠

الفصـــل الــرابع

نظـــرة في أدب ابن زيدون

الاندلس روضة غنّاء لم ينكر الدهر سحرها وفتنتها ؛ ولم يَفُتْ التاريخ أن يطري كثيرا على حضارتها وسموها ؛ تلك الروضة التي لم تبخل على الايام بانجاب الكثير من فطاحل الادب ورجالات المعرفة والفكر ، وقد كان شاعرنا ابن زيدون واحدا من اولئك الرجال بل ولا نغالي اذا قلنا انه أوحدهم في شاعريته ولا نتجنى على الحقيقة اذا اعتقدنا انه في صدارة ذلك الرعيل الذي بارا شعراء المشرق بل وفاقهم أحياناً .

فلهذا الشاعر ملكة" تعبيرية وموهبة شعرية ومقدرة في الابداع الفني جعلت نقاد الادب والمؤرخين يقفون وقفات طويلة عند ادبه محاولين معرفة ابعاد شخصية هذا الرجل الموهوب ، فقد قال عنه ابن بسام في الذخيرة (له شعر ليس للسحر بيانه ولا للنجوم الزهر اقترانه) ووصفه ابن حيان فقال (فتى الآداب وعمدة الصرف ، وانه غلب على قلوب الملوك بفضل ما اوتي من اللّسنِ ولعارضة ، وبأنه لن يخلف الدهر مثله جمالا وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً . ولم يفت الامير المعتمد بن عباد أن يقول في شعر ابن زيدون :

نظمُ دُرٍّ يستبي القلب متى يُنظم وينثرْ
دَلّني انك في الخلصان معقود بخنصرْ

فشعر ابن زيدون ينفرد بصفات عديدة تجعله متميزاً

على شعر غيره ، تراه نقي المفردات ، خالياً مما يخدش السمع وله ايقاع موسيقي جميل تجعله يتهادى على الالسن بخفة وعذوبة ولعل هذا هو السر الذي جعل البعض يلقبونه بـ (بحتري الغرب) ، انظر قوله :

بيني وبينك – ما لو شئت لم يضع –
سرٌ اذا ذاعت الاسرار لم يذع

يا بائعاً حظّه مني ولو بُذلت
لي الحياة – بحظي منه – لم أبع

يكفيك انك ان حملت قلبي ما
لم تستطعه قلوب الناس يستطع

تِه احتمل، واستطل اصبر، وعز اهن
وول أقبل ، وقل اسمع ، ومر أطع

وتمعن في قوله :

أأسلبُ في وصالك ما كسيتُ ؟
وأعزلُ – عن رضاك – وقد وليتُ ؟

وكيف ؟ وفي سبيل هواك طوعاً
لقيتُ من المكاره ما لقيتُ

فديتك ... ! ليس لي قلبٌ فأسلو
ولا نفسٌ فآنف ان جُفيتُ

فان يكن الهوى داءاً مميتاً
لمن يهوى فاني مستميتُ

اســرُ عليك عتبــاً ليس يبقــى

واضــمرُ فيــك غيضــاً لا يبيتُ

ومــا ردّي عــلى الواشــين الا

(رضيت بجــور مالكتي رضيتُ)

تُرى هل للنفس الين وارق من هذا ، وهل ثمة عبارة اخف على اللسان مما ورد .. !

في هذه النماذج نرى بدقة ووضوح اهتمام الشاعر بجعل أبياته تترابط فيما بينها كالنسيج المتوائم متحاشــياً الكلمات التي تمر ثقيلــة على النطق والسمع وذا هــو دأبــه في اغلب شــعره .

وللشاعر نهج خاص في اقتناء الالفاظ بحيث يراعي فيها موضعها من البيت ووقعها في النفس فترى وانت تقرأ شعره وكأنك تتحدث عن فرد تعرف ما يجول بخاطره ان لم يكن عن نفسك ، وهو في شعره اهتم كثيرا باتباع قواعد النظــم العربي الاصيل ولم يخرج عليها مما يفسر لنا سعة اطلاعه على مناهج النظم الشعري ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يكون شاعر العصر الذي وصف حضارته وما ضمَّ من ترف ونعيم بكل دقة وامانة .

وما دمنا بصدد ثقافة الشاعر فمن المناسب ذكر ما اورده الصفدي حين وقف يتلقى العزاء في ابنته فقيل انه ما أعاد في

ذلك الموقف عبارة قالها لاحد حيث اشار بقوله (وهذا من التوسع في العبارة والقدرة في التفنن على اساليب الكلام ، واقل ما في تلك الجنازة - وهو وزير - الف رئيس ممن يتعين ان يشكر له فيحتاج في هذا المقام الى الف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير الى الغاية لا سيما من محزون فقد قطعة من كبده :

ولكنه صوب العقول اذا انبرت

سحائب منه أُعقبتْ بسحائبِ

وقد طرق الشاعر أبواب فنونٍ عديدة في شعره فقد تغزل ومدح وهجا ووصف وطارح أصدقائه وكانت له ايضاً الملح والمطيرات .

اما غزله فيستغرق حوالي ثلث ديوانه سواءاً ما كان مستقلا أو تقليدياً في مقدمة المدائح ، وهذا حجم كبير ونسبة عالية قلما نجدها عند شاعر غيره ما عدا الشعراء المنقطعين للغزل كجميل بن معمَّر والعباس بن الاحنف ومجنون ليلى ، وما مردّ ذلك الاّ لما لعبه الحب من دورٍ مهم في حياته والمنزلة التي احتلتها حبيبته في نفسه فجعلته يبعث بأغلب شعره من نفسٍ لم تستطع الايام ان تجعل جرحها يندمل ، والدارس لغزله دراسة جدية وعميقة تراه يتحسس فيه أهم ما يتحسسه صفات الشاعر العميقة ، اقرْبْ شعره من نفس القارىء لا يوحي الاّ بصدقه وصدوره من نفسٍ معذبة ، كما

وان انفعال الشاعر وعكسه لذلك الانفعال في شعره يبين لنا مزاج الشاعر بدقة ، فتراه حين يحاول العاذل التفشي به من مرض يصيب حبيبته يجيبه اجابة يرد فيها المرض عليه ويعلل ذلك تعليلا لا يصدر الا من محب لا يرى الا محاسن المحبوب :

قال لي « اعتلَ من هويتَ » حسودُ

قلتُ « انت العليل ويحك لا هو »

ما الذي انكروه من بشراتٍ

ضاعفت حسنه وزادت حلاهُ

جسمه في الصفاء والرقة الماء

فلا غرو ان حبابٌ علاهُ

وتراه يحدثنا عن مدى حبه وتعلقه بمن يهوى باسلوب نقي يحمله شكواه ويعرّض فيه بكبرياء الحبيب :

اليك من الانام غدا ارتياحي

وانتِ على الزمان مدى اقتراحي

وما اعترضت هموم النفس الا

ومن ذكراك ريحاني وراحي

فديتك : ان صبري عنك صبري

لدى عطشي على الماء القراح

ولي امل لو الواشون كفوا

لاطلعَ غرسهُ ثمرَ النجاحِ

وتسمعه حين يصبح بعد الحبيب بعيدا ويكاد اليأس ان يتسرب لنفسه يقول بضراعة :

متى أبثك ما بي ؟ يا راحتي وعذابي
متي ينوب لساني — في شرحه — عن كتابي
الله يعلم اني أصبحت فيك لما بي
فلا يطيب منامي ولا يسوغ شرابي

ثم يتبع ذلك باطراء طفولي على الحبيبة تقرباً منها يدعو على نفسه بخيبة كل أمل له سوى رضاها :

يا فتيت المسك يا شمس الضحى
يا قضيب البان يا ريم الفلا :
ان يكن لي أملٌ غير الرضا
منك ، لا بلّغتُ ذاك الأملا !

وحينما يجد ان توسلاته لا تجدي نفعاً يعود فيلقي باللائمة على نفسه معتقداً انه سار بقدمه لحتفه ، ذاك الحب الذي سيبقى خالداً وان بُليت الليالي وفنيت الأرض :

وما كنتُ — اذ ملكتك القلب عالماً
باني — عن حتفي بكفّي باحث
فديتكِ ، ان الشوق لي قد هجرتني
مميت ، فهل لي عن وصالك باعثُ
ستبلى الليالي والوداد بحاله
جديد — وتفنى ، وهو للارض وارثُ

ولــو انني اقسمت انــك قاتلــي

وانــي مقتــول" لما قيــل (حانث)

وعبثاً يحاول استدرار عطف الحبيب ، وتبدأ نفســه بالاستسلام لليأس فتكون فلسفته في الحب ليست كما كانت حين ابتداه :

لم ينجني منك ما استشعرت من حذر

هيهات أكيد الهوى يستهلك الحــذرا

مــا كان حبك الا فتنــــة قــُـدرت

هل يستطيع الفتى أن يدفع القــدرا ؟

ويدعي بأنه لم يعد له في وصلها مأرب وغايــة وانـــه اختار بديلا أفضل :

قــد علقنا ســواك علقــاً نفيسـا

وصــرفنا اليــه عنك النفوســا

ولبسنا الجديد من خلع الحب

(م) ولم نأل ان خلعنــا اللبيسا

وتكون لوعة الهجر قاسية الى الحد الذي يحاول الثـأر لكرامته فيهاجم الحبيبة بما لم يكن في الحسبان وقد علم بأنها اختارت بديلا له ابن عبدوس :

عيـّرتمونا بأن قــد صــار يخلفنــا

فيمن نحب وما في ذاك من عــار

وكل "رشـفي" اصبنا مـن اطايبه
بعضاً ، وبعضاً صفحنا عنه للثار

هو ذا غزل ابن زيدون ، كأنه النسمات العليلة يفيض رقة وعذوبة ، ورصانة في التعبير .. ودقة في الوصف .. وجزالة في اللفظ ، وقرب في المشاعر والاحاسيس من النفس البشرية النابغة بالحب . وشاعرنا لم يخل شعره من نفحات عـذرية لسنا نراها الا خطرات عابرة لشاعر حسي لم يلجأ اليها الا يأساً من قرب المحبوب في بعض أيام الجفاء :

لئن فاتني منك حـظ النظـر
لاكتفـين بسـماع الخبـر
وان عـرضت غفلـة" للـرقيب
فحسـبي تسـليمة" تـختصر
احـاذر ان تتظنـى الوشــاة
وقد يستدام الهـوى بالحـذر
وأصـبر مسـتقيناً انــه
سيحظى بنيـل المنى من صبر

كان هذا قليلا من كثير عن غزل الشاعر ، اما عن وصفه للطبيعة وجمالها ، فان للشاعر فيه باعـاً طـويلاً ومساهمة في اغناء التاريخ بالحديث عنها . وشعره في هذا الغرض لا يقل قوة ومتانة عن غزله ، ولعل الحب الذي كان يملأ قلبه صبغ وجدانه بصبغته فصار وهو يتحدث عن الطبيعة وكأنه يناجي

المحبوب ويصف جماله ، وما كان ذاك الا للمدى البعيد الذي ذهبه الحب في نفسه والاثر الكبير الذي فعله الوجد في وجدانه ، تعال فأنظر لقوله :

كأنا - عشي القطر في شاطيء النهر
وقد زهرت فيه الازاهر كالزهر
ترش بماء الورد رشاً وتنثني
لتغليف أفواهٍ بطيبة الخمر

ويرى الشاعر حماماً رخامياً معقماً بالماء الحار والى جانبه تمثال جميل لغادةٍ هيفاء أثناء نزهةٍ له في احدى حدائق المعتضد فتفيض قريحته شعراً بديعاً يقول فيه :

ومياهٍ قد أخجل الورد أن عارض تذهيبه لها تفضيض
كلما غنت الحمائم قلنا
« معبد - اذ شدا - أجاب الغريض »

ومعبد والغريض هما مغنيان مبدعان في الدولة الاموية ٠

ويحاول الشاعر أن يشرك الطبيعة الساحرة بنبض حبه فيقول في قصيدته الشهيرة :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والافق طلق ، ووجه الروض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنما رق لي فاعتل اشفاقا

ولـــه ايضاً :

وكم مشهدٍ عند (العقيـق) وجسره
قعـدنا على حُمر النبـات وصُفره
وضـبي يسـقينا سلافة خمــره
حكى جسدي في السقم رقة خصـره
لواحظه عند الرنوّ سـهامُ

اما ما كتبه لاصدقائه وخلانه فهو ايضاً حجم كبير من ديوانه ، فالشاعر العلم الذي ذاع صيته في كل مكان لا بدّ وأن تكون له صلات كثيرة توجب عليه ان يحاكيهم بما يمتلكه من مواهب ، وهو في مناجاته لهم رقيق وكأنه يتحدث مع الحبيب وهذا أمرٌ بديهي خلفه الحب في نفسه . ومن أمثلة ذلك قوله يرد به على عتب صديقه ابي عامر بن مسلمة :

هواي ـ وان تناءت عنك داري ـ
كمثل هواي في حـال الجـوارِ
مقيـــمٌ لاتغيـــره عـــوادٍ
تُبـاعدُ بـين احيـان المـزارِ
رأيتك قلتَ (ان الهجر بدرٌ)
متـى خلت البـدور السّـرارِ
ورايك انني جلـــد صبـورٌ
ولكم صبرٍ يكون عن اضطبـارِ (١)

وله أيضا يحاكي المعتمد بن عباد :

تبـارك من جمـع الخيـر فيك
واشـعرك الخُلُقَ الامجـدا
مضاءَ الجنان ، وظرف اللسان
وجود البنـان بسكْبِ الجَدا

وللشاعر ايضا قصائد في الاهداء والاستهداء نراها مليئة بالظرف وخفة الروح والبراعة في التحدث ، ومن ذلك قوله الذي بعثه مع هدية الى جده الوزير ابي بكر محمد بن محمد ابن ابراهيم وكانت صنفاً من العتب اسـمه (اطـراف العذارى)[1] :

أتـاك محيَّـاً عنـي اعتبـارا
(عذارى) دونه ريق العـذارى
تخـال الشهدَ منـه مستمداً
ونفـح المسـك منـه مستعارا
بعثت بـه ولو أهـديت نفسي
اليك لكان من بـرّي اقتصـارا
فانعـمْ بالقبـول فـرب نعمى
اعـدت بهـا دُجى ليلي نهـارا

(١) علي عبدالعظيم : المصدر السابق .

وله أيضا يشكر المعتضد اذ دعاه لحمّامه وبعث لـــه الطيب والبخور :

رضاك لنا ـ قبل الطّهور مطهّر

وقربك من دون البخور معطّر

فلو عـزّ حمّام" لادفأنا ذُراً

يفيض بـه مـاء الندى المتفجر

ولو لم يكن طيب لاغنت حفاوة"

تمسّك منها حالنـا وتعنبر

فلا فارق الدنيا سـناء مقدس"

بعيشك منها أو ثنـاء" مجمّر

ودمت ملقّى كل يوم صبيحة

يفاديك فيهـا بالفتوح مبشّر

اما هجاء الشاعر فقد قيل إنه فاحش" مقذع ولسنا نرى ذلك الا مبالغة في القول اذ انه لا يختلف عن اهجاء سـواه من معاصريه ، ويبدو ان الشاعر لم يمنحه الا قسطاً ضئيلا من اهتمامه لذلك لا نجد في ديوانه الا قصائد قليلة في هـــذا الفرض ، وهو في هجائه ينذر ويحذر قبل أن يهاجم ، ومن ذلك قوله الذي وجهه لابي الحزم بعد سجنه :

قل للوزير : وقد قطعت بمدحه

زمني فكان السجن منـه ثـوابي

لا تخشَ لائمتي بما قد جئته
من ذاك فيَّ ولا توقَّ عتابي
لم تخطِ في أمري الصواب موفقاً
هذا جزاء الشاعر الكذابِ

اما المطيرات فهي مطارحات شعرية قائمة على الالفاز كثر ما دارت بين الشاعر والمعتمد وبنيه وبين ابي طالب محمد بن مكي ، وهو شبيه بالنظم العلمي ، ومن امثلة ذلك قوله مجيباً ابا طالب على قوله :

يا بعيد الدار موصولا بقلبي ولساني
ربما باعدك الدهر فأذنتك الاماني

فكان رد ابن زيدون :

أيها المرسل أطيار المعمَّى لامتحاني
هاك كي تزداد في الآداب علماً بمكاني
قد أتتنا الطير تشدو بعض أبيات الاغاني
برطانات قضتنا ما اقتضتنا من بيانِ

والشاعر ـ اجمالا في القول ـ له في كل غرض من الاغراض الشعرية مساهمات جادة ، فهو لم يقف عاجزا امام غرض ما بل ابدع وتفنن في كل الالوان .

وللشاعر الى جانب باعه الشعري الطويل ، قدرة فائقة في النثر كثير ما اعجب بها النقاد ودارسوا ادبه فله رسائل

عديدة وجهها الى شخصيات عدة منها رسالته المسماة (الهزلية) التي وجهها للوزير ابن عبدوس ، وله ايضاً رسالة بعثتها للامير ابي الحزم بن جهور وسميت (الجدّية) ، وله رسائل اخرى منها البكرية والمضفرية ، وله ايضاً مؤلف اسماه (التبيين) اضافة للقطع النثرية في وصف لياليه الملاح مع حبيبته ولادة ، وسنحاول أن نلقي ضوءاً على رسالتيه (الهزلية والجدّية) لاهميتهما ولاهتمام الكثير من الباحثين بهما ولانهما تمثلان أدبه النثري خير تمثيل .

اما رسالته الهزلية فان الشاعر بعثها الى الوزير ابن عبدوس حينما علم انه بعث عجوزا تستميل ولادة اليه . ويبدو فيها الشاعر متأثراً برسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، وقد أسهب فيها الشاعر اسهاباً مملا في ذكر الاسماء والحوادث التاريخية واكثر فيها من الاقتباس والتضمين حتى ان بعض الشراح وقفوا حائرين أمام بعض عباراتها ، وبالغ في استعمال المترادفات وحمّلها من البديع ما كاد أن يطغى على فكرته الاساسية ، ورغم ذلك فان الشاعر ابدع وتفتن في حبكها وصياغتها فجعلها نسيجاً متوائماً متجانساً ، وهي في اسلوبها التهكمي مثيرة للضحك بصورة لم يسبق لها مثيل وتعد في مقدمة الرسائل الخالدة في الادب العربي ، وها نحن نورد بعضاً منها .

(أما بعد ، أيها المصاب بعقله ، المورّط بجهله ، البيّن سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتداره الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب ، فأن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وانك راسلتني مستهدياً - من ضلتي - ما صفرت منه أيدي امثالك ، متصدياً - من خلتي - لما قُرِعَتْ دونه انوفَ أشكالك ، مرسلاً خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوّادة ، كاذبا نفسك انك ستنزل عنها اليّ ، وتخلف - بعدها - عليّ :

ولست بأوّلَ ذي همة　　دعته لما ليس بالنائل)

ومنها أيضاً :

(ما كنتُ لأتخطى المسكَ الى الرماد ، ولا لأمتطي الثور بعد الجواد ، فانما يتيمم من لم يجد ماء ، ويرعى الهشيم من عدم الجميم ، ويركب الصعب من لا ذلول له ، ولعلك انما غرك من علمت صوتي اليه ، وشهدت مشاعفتي له من أقمار العصر ، ورياحين المصر الذين هم الكواكب علوَّ هِمَمٍ والرياض طيبَ شيَمٍ :

من تلقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيّدهم　　مثل النجوم التي يسري بها الساري

فيحنُ قِدحٌ ليس منهم ، ما انتَ وهم ، وأين تقع منهم ؟ وهل انت الاّ واو عمرو فيهم ، وكالوشيظة في العظم بينهم ، وان كنتَ انما بلغت قعرَ تابوتك ، وتجافيت لقميصك عن بعض قوّتك ، وعطّرت أردانك ، وجررت هميانك ، واختلتَ في مشيتك ، وحذفتَ فضولَ لحيتك ، وأصلحتَ شاربك ، ومططتَ حاجبك ، ودققت خط عذارك ، واستأنفت عقد ازارك ، رجاء الاكتتاب فيهم ، وطمعاً في الاعتداد منهم ، فظننتَ عجزاً ، وأخطأت استك الحفرة ، والله لو كساك محرق البردين ، وحلّتك مارية بالقرطين ، وقلدك عمرو الصمصامة ، وحملك الحارث على النعامة ما سككتَ فيك ، ولا تكلمت بملء فيك ، ولا سترت أباك ولا كنت الاّ ذاك) .

والرسالة طويلة لا يتسع البحث لنشرها كاملة وبوسع الدارس المتعمق أن يعود اليها في مصادر أكثر وسعاً .

أما رسالته الجدية فقد كتبها الشاعر في سجنه وبعث بها للامير ابي الحزم بن جهور يستعطفه ويلتمس عفوه عنه ، ثم شفعها بقصيدة عاطفية ضارعة مؤملا نفوذها لقلب الامير ، ويؤخذ عليها ما أخذ على الرسالة السابقة من كثرة المترادفات والاقتباس ، كما انه ضمّنها كثيرا من الاشارة لاعماله وخدماته ودوره في ارساء ودعم قواعد الدولة الجهورية بما

يشبه المنّ على الامير وهو اسلوب لا يستساغ في استدرار عطف الحكام ، كما انها تضمنت تهديدا باللجوء الى خصوم الامير من ملوك الامارات الاخرى ، ورغم ما أُخِذَ عليها فهي قوية تنبض بالعواطف العنيفة والاحاسيس الصادقة ، وهي ذات عبارات متجانسة تمنحها وقعاً طيباً في النفس ، وقد عكف كثيرون على دراسة وشرح هذه الرسالة كان من أبرزهم صلاح الدين الصفدي في كتابه (تمام المنون الى شرح رسالة ابن زيدون).

ومما جاء في رسالته هذه :ـ

(فكيف ؟ ولا ذنب الاّ نميمةٌ أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمّازون المشاؤن بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدّعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً ، والسعاة الذين ذكرهم الاحنف بن قيس فقال (ما ظنك بقومٍ الصدقُ محمودٌ الاّ منهم) :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً

وليس وراء الله للمرء مذهبُ

والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ، ولا نصبتُ لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأساً منك ، مع ضمانٍ تكفلتْ به الشقة عنك ، وعهدِ أخذه حُسنُ الظن عليك ، ففيم عبث الجفاء بأذمتي ؟ وعاثَ العقوق في مودتي ، وتمكن الضياع من وسائلي ؟ ولمَ ضاقت

مذاهبي ، وأكدتُ مطالبي ، وعلام رضيتُ من المركب بالتعليق ؟ بل من الغنيمة بالإياب؟ وانّا غلبني المغلّب ؟ وفخرَ عليّ العاجز الضعيف ؟ ولطمتني غيرُ ذات سوار ؟ وما لك لا تمنع مني قبل أن أُفترس ، وتدركني ولما أفرّق ؟)

ويمضي فيها حتى يقول :

(هاكها ـ أعزك الله ـ يبسطها الامل ، ويقبضها الخجل ، لها ذنب التقصير ، وحرمة الاخلاص ، فهبْ ذنباً لحرمةٍ ، واشفع نعمةً بنعمه ، ليتأتى لك الاحسان من جهاته ، وتسلك الى الفضل طرقاته ان شاء الله تعالى) .

والرسالة كسابقتها طويلة لا متسع لنا لادراجها كاملة .

هذا هو أدب ابن زيدون ، وقد عرضنا ملامح بسيطة منه آملين أن يكون هذا العرض المقتضب حافزاً لطلاب الادب في أن يدرسوا كل ما أحاط بالشاعر من ظروف ويتتبعوا أدبه وشعره مانحين اياه قسطاً من الاهمية ، والعناية بغية الكشف عمّا ضاع واندثر من عطاآت هذا الرجل النابغة .

[illegible]

المختـــار

من شعر ابن زيدون

حين فرَّ الشاعر من سجنه الى اشبيلية دفعه شوقه وحنينه لنظم قصيدته النونية الشهيرة التي شغف بها الكثيرون فعارضوها وخمسوها وسدسوها ولكنها ظلت تسمو على كل ما قيل .

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا ـ وقد حان صبح البين ـ صبَّحنا
حَيْنٌ ، فقام بنا للحين داعينا
مَنْ مبلغ الملبسينا بانتزاحِهِمُ
حزناً مع الدهر لا يبلى ولا يبلينا
ان الزمان الذي ما زال يضحكنا
انساً بقربهمُ قد عاد يبكينا
غيظَ العدى من تساقينا الهوى فدعوْا
بأن نغصَّ فقال الدهرُ آمينا
فأنحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا
وانبتَّ ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا
فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

* *

يا ليت شعري – ولم نعتب اعاديكم –
هل نال حظاً من العتبى اعادينا

لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم
رأياً، ولم نتقلد غيره ديناً

ما حقنا ان تُقِروا عين ذي حسدٍ
بنا ولا ان تُسرّوا كاشحاً فينا

* *

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يئسنا فما لليأس يعزينا ؟

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الاسى لولا تأسينا

حالت لفقدكم ايامنا فغدت
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

اذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومربع اللهو صافٍ من تصافينا

واذ هصرنا فنون الواصل دانية
قطافها، فجنينا منه ماشينا

* *

ليسقَ عهدكمُ عهد السرور فما
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا
أن طالما غيّر النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا
ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

* *

يا ساري البرق غادِ القصر واسق به
من كان صِرف الهوى والود يسقينا
واسأل هناك : هل عنّى تذكرنا
الفاً تذكّره أمسى يعنّينا ؟
ويا نسيم الصّبا بلّغ تحيتنا
من لو على البعد حيّى كان يحيينا
فهل أرى الدهر يقضينا مساعفةً
فيه ، وإن لم يكن غبّاً تقاضينا

* *

يا روضةً طالما أجنت لواحظنا
ورداً جلاه الصِّبا غضّاً ونسرينا

ويـــا حيـــــاةً تملينـــا بزهـــرتهـا

مُنـىً ضروباً ولـــذاتٍ افانينـــا

ويـــا نعيمـاً خطـــرنا مـن غضــارتِه

في وشـي نعمى سحينا ذيلـه حينـا

لســـنا نسـميك اجـلالاً وتـكرمة

وقـدرك المعتـلى عـن ذاك يغنينـا

اذا انفـردتِ وما شـوركت في صـفة

فحسـبنا الـوصف ايضـاحاً وتبيينـا

* *

يا جنـه الخلـد أبدلنـا بسـدرتها

والـكوثر العـذب زقـوماً وغسـلينا

ان كان قـد عزَّ في الدنيـا اللقـاء ففي

مـواقف الحشــر نلقـاكم ويكفينـا

كأننـا لـم نَبِت والوصـل ثالثنـا

والسعد قد غضَّ من أجفـان واشـينا

سـرّان في خاطـر الظلمـاء يكتمنـا

حتـى يـكاد لسـان الصبح يفشـينا

لا غرو في ان ذكرنا الحزن حين نهت

عنـه النهـى وتركنـا الصبر ناسـينا

انّا قرأنا الاسى يوم النوى سُوَراً
مكتوبةً واخذنا الصبر تلقينا
أما هَواكِ فلم نعدِلْ بمنهَلِه
شَرْباً وان كان يروينا فيظمينا
لم نَجفُ افقَ جمالٍ انتِ كوكبه
سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناه عن كثَبِ
لكن عدتنا ـ على كرهٍ ـ عوادينا

ذكريات

اذكرتني سالف العيش الذي طابا
يا ليت غائبَ ذاك العهد قد آبا
اذ نحن في روضةٍ ـ للوصل ـ نعمّها
من السرور غمامٌ فوقها صابا
اني لأعجب من شوقٍ يطاولني
فكلما قيل فيه (قد قضى) ثابا
كم نظرةٍ لكِ في عيني علمتِ بها
ـ يوم الزيارةِ ـ ان القلب قد ذابا
قلبٌ يطيل معاصاتي لطاعتكم
فأن اكلّفه عنكم سلوةً يأبى
ما توبتي بنصوحٍ ـ من محبتكم ـ
لا عذّب الله الاّ عاشقاً تابا

من الزهراء

وحين اختفى في ضاحية الزهراء بعد فراره من السجن بعث بهذه القصيدة لحبيبته ولادة :

انـي ذكـرتك بالـزهراء مشـتاقا
والأفقُ طلقٌ ومرأى الارض قد راقا

وللنسـيـم اعتـلالٌ في اصـائله
كأنمـا رقَّ لـي ، فاعتـلَّ اشـفاقا

والـروض عـن مائه الفضي مبتسمٌ
كمـا شـققتِ عـن اللبـات أطـواقا

نلهو بما يستميل العـين من زهـرٍ
حال الندى فيه حتى مـال اعنـاقا

كـأن أعينـه اذ عـاينت ارقـي
بكت لمـا بي فجـال الدمعُ رقـراقا

وردٌ تألّـق - في ضـاحي منابتـه
فازداد منه الضحى في العين اشـراقا

سـرى ينافحـهُ نيلوفـرٌ عَبـِق
وَسْنان نبَّه منه الصـبح أحـداقا(١)

(١) النيلوفر : زهر كبير ينبت في المياه الراكدة تنطبق أوراقه في الليل وتتفتح في النهار ٠

كـل" يهيـج لنـا ذكرى تشوقنا

اليك لم يَعدُ عنها الصـدر ان ضاقا

لا سـكّن الله قلبـاً عـنّ ذكـركمُ

فلـم يَطـر بجنـاح الشوق خفـاقا

لو شاء حملي نسيم الصبح ـ حين سرى ـ

وافـاكم بفتـىً أضنــاه مـا لاقى

يوم" كأيـام لـذاتٍ لنـا انصرمت

بتنـا لهـا ـ حين نام الدهر ـ سُرّاقا

لـو كـان وفى المنى في جمعنـا بكمُ

لـكان مـن أكـرم الايـام أخـلاقا

* *

يا علقيَ الاخطرَ الاسنى الحبيب الى

نفسي اذا ما اقتنى الاحبـاب اعـلاقا

كان التجازي بمحض الود مُـذ زمن

ميدان أنس جرينـا فيـه اطـلاقا

فالآن أحمـد مـا كنّـا لعهـدكم

سـلوتمُ وبقينـا نحـنُ عشـاقا

الامل المنشود

يا نازحا وضمير القلب مثواه
انستك دنياك عبدا انت دنياه
الهتك عنه فكاهات تلذ بها
فليس يجري ببال منك ذكراه
علّ الليالي تبقيني الى امل
الدهر يعلم والايام معناه

ارتياح

اليك – من الانام – غدا ارتياحي
وأنت على الزمان مدى اقتراحي
وما اعترضت هموم النفس الا
ومن ذكراك ريحاني وراحي
فديتك : أن صبري عنك صبري
لدى عطشي – على الماء القراح
ولي أمل لو الواشون كفوا
لاطلع غرسه ثمر النجاح
واعجب كيف يغلبني عدو
رضاك عليه أمضى من سلاحي

ولما ان جلتك لتي اختالا مهالا

اكف الدهر للحين المتاح

رايت الشمس تطلعُ من نقابِ

وغصن البان يرفلُ في وشاحِ

فلو أستطيع طرت إليك شوقاً

وكيف يطير مقصوص الجناحِ

فؤادي من أسىً بك غيرُ خالٍ

وقلبي - عن هوىً لك - غير صاحِ

على حالي: وصالٍ واجتنابٍ

وفي يومَيْ دنوٍّ وانتزاحِ

وحسبي أن يطالعك الاماني

بأفقك في مساءٍ او صباحِ

وان تهدي السلام اليَّ غِبّاً

ولو في بعض انفاس الرياحِ

شجون غريب

نظم الشاعر هذه القصيدة وهو متغرب بعيد عن اهله ووطنه - وقد نشر العيد حلته على الناس جميعاً الا هو :

هل تذكرون غريباً عاده شجن

- من ذكركم - وجفا اجفانه الوسنُ ؟

يخفي لواعجه والشوق يفضحها
فقد تساوى لديه السر والعلن
يا ويلتاه، أيبقى في جوانحه
فؤاده وهو بالاطلال مرتهن؟!
وارق العين والظلماء عاكفة
ورقاء، قد شفها – اذ شفني – حزن
فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها
وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن

*

يا هل اجالس أقواماً أحبهم
كنا وكانوا – على عهد – فقد ضعفوا
أو تحفظون عهوداً لا اضيعها
ان الكرام – بحفظ العهد – تمتحن

* *

ان كان عادكم عيد قرب فتى
بالشوق قد عاده من ذكركم حزن
وافردته الليالي من احبته
فبات ينشدها مما جنى الزمن!
(بم التعلل؟ لا أهل ولا وطن
ولا نديم! ولا كأس ولا سكن) (١)

(١) هذا البيت هو مطلع قصيدة للمتنبي اقتبسه الشاعر .

العهود الضائعة

ثقي بي يا معذبتي فأني
ساحفظ فيك ما ضيعت مني
وانِ اصبحت قد ارضيت قوماً
بسخطي ، لم يكن ذا فيك ظني
وهل قلبٌ كقلبك في ضلوعي
فأسلو عنك حين سلوت عني؟
تمنت ان تنال رضاك نفسي
فكان منيةً ذاك التمني
ولم اجنِ الذنوب فتحقديها
ولكن عادةٌ منك التجني

بعض الوصل

اغائبة عني ، وحاضرةً معي
اناديك – لما عيل صبري – فأسمعي
افي الحق ان إشقى بحبك او أرى
حريقاً بأنفاسي ، غريقاً بأدمعي
ألا عطفةٌ تحيا بها نفسُ عاشق
جعلت الردى منه بمرأىً ومسمع
صليني – بعض الوصل – حتى تبيّني
حقيقة حالي ثم ما شئت فأصنعي

القاضي الجائر

لو كان قولك « مُتْ » ما كان ردّي « لا »
يا جائر الحكم ، أفديه بمن عدلا

أبديت لي من أفانين القلى عبراً
أرستني في أحاديث الهوى مثلا

لم تبقِ جارحةً بالهجر من جسدي
الا خلعت عليها – للضنى حُللا

فليغنِ كفَّك أني بعض ما ملكت
وليكفِ طرفك اني بعضُ من قتلا

ولتقضِ ما شئت من هجرٍ ومن صِلةٍ
لا أقضِ ما عشتُ سلواناً ولا مللا

سقياً لعهدك والايام تقبلني
وجه السرور به جذلان مقتبلا

اذ الزمان بليغ في مساعدتي
يهدي الي تفاريق المنى جُملا

ان كان لي أمل الا رضاك فلا
بُلّغت – يا أملي – من دهري الاملا !

* *

الحبيب الظالم

سأحبُ أعدائي لانك منهمُ
يا من يُصحُ بمقلتيه ويسقمُ
أصبحتَ تسخطني فأمنحك الرضى
محضاً وتظلمُني فلا أتظلَّمُ
يا من تألَّف ليلُه ونهارُه
فالحسن بينهما مضيءٌ مُظلِمُ
قد كان في شكوى الصبابة راحةٌ
لو انني أشكو الى من يرحَمُ

كن كما تشاء

كما تشاء فكن لي !! لستُ منتقلا
لا تخشَ مني نسياناً ولا بَدَلا
وكيف ينساك من لم يدر بعدك ما
طعم الحياة ولا بالبعد عنك سَلا ؟
اتلفتني كَلَفاً ، ابليتني اسفاً
قطعتني شغفاً ، اورثتني عِللا

* *

ان كنتُ خنتُ واضمرت السلو فلا
بلغت ما املي من قربك الأمَلا

والله لا عَلِقت نفسي بغيركم
ولا اتخذت سواكم منكم بَدَلا

* *

وقال الشاعر يهنيء ابا الوليد بن جهور حين تولى الحكم :

ما للمدام تديرها عيناك
فيميل في سكر الصِّبا عطفاك ؟
هلاّ مزجت لعاشقيك سُلافها
ببرود ظَلمك ان يعذب لَماك ؟
بل ما عليك وقد مَحَضت لك الهوى
في ان افوز بحظوة المسواك ؟
ناهيك ظُلماً ان أضرَّ بي الصدى
برحاً ونال الريَّ عودُ اراك

*

واهاً لعطفك والزمان كأنما
صَبغت غضارته ببُرد صباك
والليل مهما طال قصَّر طوله
هاتي وقد غفل الرقيب وهاك
ولطالما اعتلّ النسيم فخلته
شكواي رقّت فاقتضت شكواك

ان تألفي سنة النوم بخليقة

فلطالما تأخرت في كراك

أو تحتبي بالهجر في نادي القلى

فلكم مللت الى الوصال حباك

* *

امّا منى نفسي فأنت جميعها

يا ليتني أصبحت بعض مناك !

يدنو بوصلك حين شط مزاره

وهم أكاد به أقبّل فاك

ولئن تجنبت الرشاد بعذرة

لم يهو بي في الغي غير هواك

*

الجهوري ابي الوليد خلائق

كالروض اضحكه الغمام الباكي

ملك يسوس الدهر منه مهذب

تدبيره للملك خير ملاك

جارى أباه بعدما فات المدى

فتلاه بين الفوت والادراك

شمس النهار وبدره ونجومه

ابناؤه من فرقد وسماك

يستوضح السارون زُهرَ كواكبٍ
منهم تنيرُ غياهب الاحلاكِ
بشراك يا دنيا وبشرانا معاً
هذا الوزير ابو الوليد فتاكِ
يَنعت جنانُكِ تحت صوبِ غمامه
وصفتْ جمامُكِ واستلذّ جناكِ

* *

تُلفى السيادةُ ثم إن اضللتِها
ومتى فقدت السروَ فهو هناك
واذا سمعت بواحدٍ جُمِعتْ له
فرقُ المحاسن في الانام فذاك
مِصمامُ بادرةٍ وطورُ سكينة
وجوادُ غاياتٍ وجذلُ حكاك
طلق يفنّدُ في السماحِ ، وجاهلٌ
مَنْ يستشف النارَ بالمحراكِ

* *

صنَعُ الضميرَ اذا اجال بمهرقٍ
بمناهُ في مهلٍ وفي ايشاكِ
نظمَ البلاغة في خلالِ سطوره
نظمَ اللآلي التوم في الاسلاكِ

نادى مساعيَهُ الزمان منافساً

احرزت كلَّ فضيلةٍ فكفاكِ

ما الوردُ في مجناه ساحرة الندى

متجليـاً الا ببعض حلاكِ

كلا ولا المسكُ النموم اريجُه

متعطراً الا بوشم ثناكِ

اللهوُ ذكرُك لاغناء مرجَّع

تهفو لها اسفاً قلوبُ عداكِ

* *

يا ايها القمر الذي لسنائه

وسناه تعنو السبع في الافلاكِ

فرح الرياسة اذ ملكت عنانها

فرحُ العروس بصحة الاملاكِ

من قال انك لستَ اوحد في النهى

والصالحات فذاك بالاشراكِ

قلَّدتَنيَ الرأي الجميل فانه

حسبي ليومي زينةً وعراكِ

واذا تحدثت الحوادث بالرَّنا

شزراً اليَّ فقل لها : اياكِ !

هو في ضمان القرم يعبس وجهه

للخطب والخُلُق الندى الضحاكِ

وأحسَمَ داري تضاعف عزّة
لماذا أُهين بمستحقٍ ومَسداكِ
والدجْنُ للشمس المنيرة حاجبٌ
والجفنُ مثوى الصارم الفتاكِ
هنأتك صِحَتُك التي لو أنها
شخصٌ لحاوره المقلتُ : هناك
دامت حياتكَ ما استدمت فلم تزل
تحيا بك الاخطار بعدَ هَلاكِ

* *

وقال الشاعر راثياً ابا الحزم ومهنئاً ابنه الوليد بتوليه الحكم :

ألم ترَ ان الشمس قد ضمَّها القبرُ
وانْ قد كفانا فقدَها القمرُ البدرُ
وان الحيا إن كان أقلعَ صوبُهُ
فقد فاض للآمال في اثره البحرُ
اساءةُ دهرٍ أحسن الفعلَ بعدها
وذنبُ زمانٍ جاء يتبعه العذرُ
فلا يتهنَ الكاشحون فما دجا
لنا ليلُ الاّ ريثما طلعَ الفجرُ
وان يكُ ولى « جهور » فمحمدٌ
خليفته العدلُ الرضيُّ وابنُهُ البرُّ

لعمري لنعمَ الفلقُ اتلفهُ الرَّدى
فبانَ ، ونعم الفلقُ اخلفهُ الدهرُ
همامٌ جرى يتلو اباه كما جرى
معاوية يتلو الذي سنَّه صخرُ
هززنا به الصمصام فالعزم حدَّهُ
وخليقته العليا ، وافرنده البشرُ
فتىً يجمع المجدَ المفرَّقَ همُّه
وينظمُ في اخلاقه الودَّ النثرُ
اهابت اليه بالقلوب محبَّةٌ
هي السحر للاهواء بل دونها السحرُ
سرتْ حيث لا تسري من الانفس المنى
ودبَّت دبيباً ليس يحسنه الخمرُ
لبسنا لديه الامن تندى ظلالهُ
وزهرةَ عيشٍ مثلما اينع الزهرُ
وعادت لنا عادات دنياً كأنها
بها وسنٌ او هزَّ اعطافها سكرُ

* * *

مليكٌ له منَّا النصيحةُ والهوى
ومنه الايادي البيض والنعمُ الخضرُ
نسرُّ وفاءً حين نعلنُ طاعةً
فما خانه سرٌّ ولا رابهُ جهرُ

فقل للحيارى « قد بدا علم الهدى »

وللطامع المغرور « قد قضي الامر »

أبا الحزم قد ذابت عليك من الاسى

قلوب مناها الصبر لو ساعد الصبر

دع الدهر يفجع بالذخائر اهله

فما لنفس — منطواك الردى — قدر

تهون الرزايا بعد وهي جليلة

ويعرف مذ فارقتنا الحادث النكر

فقدناك فقدان السحابة لم يزل

لها أثر يثني به السهل والوعر

مساعيك حلي لليالي مرصع

وذكرك — في أردان أيامها — عطر

فلا تبعدن ! ان المنية غاية

اليها التناهي ، طال أو قصر العمر

* *

عزاء — فدتك النفس — عنه فان ثوى

فانك لا الفاني ولا الضرع الغمر

وما الرزء في أن يودع الترب هالك

بل الرزء كل الرزء أن يهلك الأجر

أمامك من حفظ الاله طليعة

وحولك من آلائه عسكر مجر

ومـا بكَ مـن فقـر الى نصرِ ناصرِ

كفتكَ مـن الله الكلاءةُ والنصرُ

لك الخيـر إني واثـق بك شاكرٌ

لمثلي أياديك التي كفـرها الكفـرُ

تحامى العـدا لما اعتلقتك جانبي

وقال المُنادي شبَّ عن طوقهِ عمـرو

يلـين كـلامٌ كـان يخشن منهـم

ويفتـرُ نحوي ذلك النظـرُ الشزرُ

* *

فصَـدّق ظنـوناً لـي وفيٍّ فانّنـي

لأهلُ اليـد البيضاء منكَ ولا فخـرُ

ومن يـكُ للـدنيا وللوفرِ سـعيهُ

فتقريبك الـدنيا واقبـالك الوفرُ

* *

●●●

مصادر البحث

١ - ديوان ابن زيدون ورسائله - الاستاذ علي عبدالعظيم .

٢ - الشعر النسوي في الاندلس . د . باقر سماكه .

٣ - ابن زيدون - شوقي ضيف .

٤ - عصر ابن زيدون - دراسة تحليلية - د. عبدالجليل الراشـد .

٥ - بحوث أدبيـة - عبدالصاحب شكر .

٦ - ابن زيدون وأثر ولادة في حياته وادبه - وليم الخازن .

فهرس الكتاب

رقم الايداع ١٧١٩ في المكتبة الوطنية بغداد لسنة ١٩٨٥

إبن زيدون كعلم من أعلام شعراء العربية كان
مدار الحديث في هذا الكتاب الذي بين يديك
عزيزي القارئ وقد إتضحت فيه الخطوط
العامة والخاصة المتعلقة بحياة إبن زيدون
كانسان وكشاعر عاش مخلص مع نفسه
وطمئنا ألى إن الحب رسالة إنسانية
وغاية مطهرة يتوجب على الانسان
الالتزام بمفاهيمها وتقصي أبعادها للانطلاق
به في عوالم رحيبة من العاطفة الخلاقة
والحلم الجميل

الناشر

الثمن ١,٢٥٠ دينار

الناشر

دار الآداب والعلوم

طبع الغلاف في مطبعة سلمى الفنية الحديثة